محمد فؤاد الذاكري

الطب والأطباء في القدس

نهاية القرن الحادي عشر الهجري

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق 2009

د. محمد فؤاد الذاكري

- من مواليد عام 1957، حاصل على شهادة دكتور في طب الأسنان من جامعة دمشق.
- باحث في التراث العلمي العربي.
- خبير ومحرر مشارك في موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين.
- نشر مجموعة من الكتب تتضمن تحقيقاً لمخطوطات طبية تراثية ذات مواضيع متنوعة تتناول أدب الطبيب، وطب الأسنان، وتعريب المصطلح الطبي، كما حصل على جائزة الباسل للإنتاج الفكري والإبداع الفني، وجائزة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية.

مقدمة

كنت في التاسعة من عمري حين زرت القدس.

بعد رحلة طويلة من حلب إلى عّمان، اتجّهت مع عائلتي إلى القدس عبر حافلة صغيرة متهالكة، وأمام السور القديم كان اللقاء.

لم أشعر بالغربة أبداً في المدينة القديمة فهي تتقاطع كثيراً مع مدينتي حلب، فالأزّقة الحجرية الملتوية كانت منظراً مألوفاً، والوجوه الحزينة التي تطالعك لأشخاصٍ منهمكين في تفاصيل حياتهم اليومية تصادفهم في أي مدينة عربية.

كان مشهداً لا ينسى حين أشار أحد المقدسيين إلى مكان بعيد قصيّ خلف الأسلاك الشائكة حيث يوجد العدو المتربّص، حّدقت طويلاً، وعند الوداع طلب مني ألا أنسى.

مشاهد القدس تشّدك إليها، باحة المسجد الأقصى تشعرك بالأمان فهي خط الدفاع عن المسجد الأقصى وامتداده، ومن أراد شراً سيفاجأ بالمئات النابتين منها، المزروعين فيها، ويستحيل اقتلاعهم، كأشجار الزيتون والبرتقال وكل نبات حّي في سهول فلسطين وجبالها.

أمدّني طريق الجُلجُلة بزاد من الحكايات، وتاج الشوك يقطر دماً، لم أنس إيقاد شمعة في كنيسة القيامة، ومهد السيد المسيح في بيت لحم.

توقفت طويلاً أمام مسجد عمر بن الخطاب العابر للصحراء برفقة مرافقه وناقته، ليعلن عهداً جديداً في تاريخ القدس أهدى الحضارة الإنسانية أزهى عصورها.

اصطحبي أبي في رحلة مسائية بجانب السور القديم، كنت مأخوذاً بروعة المشهد، وفجأة التفت، وقال: كن صديقي.

على الرجل الحكيم أن يتجاوز شكوك الآخرين، وعذاب الحب المهين، ومكائد الخّلان، ونزوات المتنفذين.

كنا منفردين، فقط سور القدس كان الشاهد الوحيد.

في ذكراه تسبقني العبرات لفقدان توأم روحي، وحين يعترضون بأنه والدي، كان لابد بأن أستنجد بحجارة القدس، شاهدي الوحيد، فالقدس تحّبني وأنا أحّبها.

د.محمد فؤاد الذاكري

حلب 15/جمادي الآخر/1430

8/حزيران/2009

عرض تاريخي

كان لفلسطين حضور قوي عبر مراحل التاريخ على صعيد الطب والأطباء، فيذكر المؤرخ الشهير النديم في (الفهرست) الطبيب طيماوس الفلسطيني، والمرجّح أنه عاش في القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد، وقال بأنه من أوائل المفسّرين لكتب أبقراط الطبّية وهو الطبيب الفلسطيني الوحيد الذي وصلنا اسمه من الفترة الهلنستية في تاريخ فلسطين.

أما المدرسة العلمية التي أنشأها العالم اللاهوتي المسيحي أوريغن، فهي مدرسة قيسارية (جنوب حيفا)، ودليل على النفوذ العلمي اليوناني في ثقافة الشرق الأدنى.

خلال العصر الروماني البيزنطي بدأت الكنيسة المسيحية بتأسيس مؤسّسات تؤدي بعض وظائف المشافي تجلّت بإنشاء أنزال (ج. نُزُل) تأوي الحجّاج والمسافرين وتقدّم لهم المعالجة الطبية، وهي خطوة رائدة في تقدّم الخدمات الطبية في القدس، ومن المهم أن نعلم بأن القدس بوصفها مقصداً للحجّاج، كانت من المدن الأولى في العالم، التي عرفت منازل كهذه.

انتقلت علوم الطب اليوناني إلى الحضارة العربية الإسلامية الناشئة عبر قنوات عديدة، منها: مدرسة الأسكندرية وحرّان وأنطاكية والرها وأكاديمية جند يسابور.. ومن الأديرة المسيحية (النسطورية خاصة) في الشرق الأدنى، ومنذ القرن الأول للهجرة أقبل أبناء الحضارة العربية على ترجمة الكتب اليونانية بتشجيع من الخلفاء ورجالات الدولة وأصحاب الثروات.

في الفترة الإسلامية الأولى التي تلت الفتح العربي الإسلامي في القدس وفلسطين ظهرت ملامح تراث الطب العربي القديم في الفترة الأموية وما قبلها وما بعدها، فكتائب الجيوش الإسلامية، حملت معها الأطباء وممارساتها الطبية وعلاجاتها الخاصة، وعقاقيرها المستّمدة من بيئة الجزيرة العربية.

وبرز أيضاً التراث المحفوظ في أديرة القدس من مخطوطات اليونان الذي كان يتدارسه الرهبان والقسس في القدس والمنطقة المحيطة، وظهرت شخصية خالد بن يزيد بن معاوية حكيم آل مروان ونشاطه في مجال السيمياء والطب واتصاله مع مريانس الراهب المتبتل في جبال القدس، وصداقته مع يوحنّا الدمشقي الذي غدا من أعظم العلماء الذين أنجبتهم الكنيسة الشرقية، وهو مشهد ذو مغزى عن تحالف لم يسبق بين السلطة وحَمَلة العلم، تباركه تعليمات دينية تمّ تنفيذها بدقة وحرفية عالية تقضي بطلب العلم ولو في الصين، وكان من نتيجته حلول العصر العلمي الذهبي للحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي.

وبداية ظهور عائلة التميمي المقدسية الشهيرة ممثّلة بعالم عربي فذّ، واسع الإطلاع، أصيل الرأي والفكر، بعيد النظر، هو محمد بن احمد التميمي الطبيب والصيدلاني.

لكن التميمي لم ينشأ من فراغ، فوالده وجده كانا طبيبين أيضاً، ومن خلال مؤلفاته سرد لنا عدداً من أسماء شيوخه وأساتذته الذين تلقّى عنهم علوم الطب والصيدلة وتحضير الأدوية، وبلغوا درجة عالية في التعرّف على أنواع العقاقير والنباتات الطبية والأدوية المعدنية الطبيعية فدرسوها وتحققّوها ووصفوها، وعرفوا تأثيراتها،

واستخدموها في المعالجة، وكذلك مارسوا إعداد الأدوية المفردة واختيار الجيد منها، وعرفوا طرق التركيب وصناعة الأدوية.

فكان الطبيب يحسن مهنة الصيدلاني في تركيب العقاقير النافعة وفحص تأثيرها لزيادة مفردات جديدة وحذف ما لا يفيد حتى حازت تحضيراتهم الدوائية الجدوى والشفاء.

مما يدّل على وجود العشرات من الأطباء والنباتيين والشجاّرين والحشائشيين والعطّارين ومركبّي الأدوية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، كانوا ينتشرون في القدس وضواحيها وفي سهول فلسطين الغنية بغطائها النباتي يجمعون المادة الطبية الأوّلية، ويقومون بتصنيفها وتركيبها، لإنتاج صناعة دوائية متنوعة تمثّلت بظهور العشرات من التراكيب الدوائية لمعالجة كافة أنواع الأمراض من جسدية ونفسية.

كان الطبيب العلاّمة محمد بن أحمد التميمي (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) هو نقطة الالتقاء الذي تراكمت عنده كل هذه التراكمات والمعطيات، فصاغها في كتب علمية رائعة منها: مادة البقاء، الترياق، المرشد إلى جواهر الأغذية، وغيرها.....

ويطالعنا خبر من أحد الرحّالة بوجود مستشفى إسلامي في مدينة القدس في منتصف القرن الخامس الهجري، أوقفت عليه أوقاف فائقة للإنفاق على المرضى والأطباء، وسرعان ما اختفت أخباره بعيد استيلاء الفرنجة على مدينة القدس عام (492هـ/1109م).

اهتم الفرنجة المحتلّين لفلسطين وأجزاء من بلاد الشام بالتاريخ، ويمثّله المؤرخ الشهير وليم الصوري وبعض تلامذته، والقانون لبناء الدولة وإرساء قواعدها، والشعر والأدب بما يتعلق بقصائد المغامرات والأبطال.

وعلى صعيد العلوم الرياضية والطبيعية والطبية كان الميزان يميل لصالح العرب والمسلمين، وتشير المصادر إلى أن معظم أطباء الفرنجة لم يكونوا أهلاً للثقة، لذلك نجد أن ملوك الفرنجة كثيراً ما استقدموا أطباء شرقيين، مسلمين وسريان، ونصارى آخرين، ومن الأطباء الذين عملوا مع الفرنجة في فلسطين ثاوذوري الأنطاكي، والحكيم أبو سليمان بن داود بن أبي فانة المقدسي، وكان لضعف الاهتمام بالثقافة وإنشاء المؤسسات الثقافية الصليبية في الشرق، أثر واضح في إخفاق الحروب الصليبية وانهيار مملكة القدس الصليبية.

ولا بد من الإشارة إلى أن الفرنجة اهتمّوا في تلك الفترة بإنشاء نُزُل للحجّاج ومستشفيات للمرضى وأهمّها مستشفى القديس يوحنا الذي أنشأه منظمة فرسان القبر المقدس (الأسبتارية) أمام كنيسة القيامة، ومستشفى القديس عازار لمداواة المجذومين.

وتسابقت القوميات المختلفة التي شاركت في حروب الفرنجة في إنشاء مستشفيات أخرى في القدس، فقد أسّس الألمان مستشفى لهم عام (1128م) كشفت الحفريات عن أنقاضه. كما أنشأ المجريون مستشفى لهم عام (1135م) ويرجّح أنه كان يقع شمال كنيسة القيامة، ولحق بهم الأرمن، فبعد أن أسّسوا ديرمار يعقوب حوالي عام (1142م) عمدوا إلى إنشاء مستشفى عام (1165م) أضافوه إلى الكنيسة والدير، كما ذكر الباحث الألماني شفاكة SCHWAKE.

بعد تحرير القدس، أنشأ الناصر صلاح الدين البيمارستان الصلاحي عام (588هـ/1192م) بعد أن أدرك حاجة سُكان المدينة لمؤسسة استشفائية في ظل الزيادة العددية للسكان، والأمراض والأوبئة التي كانت تجتاحها، وجهّزه بأدوية وعقاقير عزيزة الوجود، وأوقف له الأوقاف اللازمة.

شهدت القدس خلال الفترة الأيوبية فترة ازدهار، تمثّلت في عدد الأطباء وتطوّر العلوم الطبية والعناية بها، وقد ذكرت المصادر زهاء عشرين طبيباً، اشتهر بعضهم وعملوا في القدس وهاجر كثيرون منهم إلى مراكز السلطة في العواصم، مثل: دمشق والقاهرة، واستطاعوا أن يفوزوا من خلال تميّزهم بثقة رجالات الدولة الأيوبية، فالتحقوا بخدمتهم.

وظهرت في تلك الفترة أيضاً عائلة طبية مقدسية أنجبت تسعة أطباء علت مكانتهم وعمّت شهرتهم، وهي عائلة ابن أبي فانة النصرانية المقدسية، انتقل بعضهم إلى القاهرة ودمشق، ومنهم من ولد خارج القدس ولم يعش فيها.

ويصادفنا طبيب أصله من مدينة صور هو: رشيد الدين أبو منصور بن أبي الفضل بن علي الصوري، عمل في البيمارستان الصلاحي بالقدس فترة عامين، وكان أوحد زمانه في معرفة النباتات الطبية وخواصها، وانتقل بعدها إلى دمشق وتوفي عام (639هـ/1241م)، وخلفه تلميذه وحفيده علي بن يوسف بن عبد الله التنوخي المقدسي الذي استكمل أعمال جده في تحرير أدوية الترياق وتركيبه، وجال كثيراً في فلسطين وبلاد الشام وغيرها بغرض التعرّف عياناً على النباتات الطبية في مواطنها الأصلية.

تتّصف فترة المماليك التي بدأت عام (648هـ /1250م) بخصائص متناقضة، فالقيادة السياسية وحّدت مصر والشام وتمكّنت من طرد الدخلاء من الفرنجة والمغول ودفعت عدوانهم واحتلالهم، وبدأ عصر القوة الاقتصادية، ومع ظهور الأوبئة وموجات الجفاف والمجاعة والزلازل، اجتاح وباء الطاعون مرّات عديدة القدس وفلسطين وبلاد الشام.

ويسجّل للأمراء المماليك أنشاؤهم للعديد من الرُبَط (ج. رِباط) لإيواء المسافرين والفقراء المرضى، والاهتمام بمنشآت المياه في مدينة القدس، وهي جهود تصّب لتحسين مستوى الصحة العامة ومعالجة الأمراض، كما نلاحظ تراجع المستوى العلمي للمؤلفات الطبّية في تلك الفترة.

تتوقف حدود الكتاب عند نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، ولا بد من الإشارة لأهم المراجع التي ساعدتني لإتمامه، ومنها الكتب والدراسات في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب لصديقي العالم الأردني سامي خلف حمارنة، وفهرسته لمخطوطات الطب والصيدلة في العديد من المكتبات في سوريا ومصر وبريطانيا وأمريكا وغيرها، وقد خسرنا بوفاته علاّمة أثرى المكتبة العربية ببحوث تراثية جادّة وأصلية، واعتزّ برسائله الشخصية التي حملت التشجيع والمثابرة.

في الختام لا بد من الإشادة بجهود علاّمة القدس المرحوم الأستاذ الدكتور كامل جميل العسلي، ومؤلفاته القيّمة عن تاريخ القدس، ومدى الإفادة منها في تحضير هذا الكتاب.

د. محمد فؤاد الذاكري

الفصل الأول

الطب والأطباء في القدس قبل الميـلاد

تقع فلسطين وسط منطقة لها تراث طبي عريق، بابل ومصر وبلاد اليونان، ومن الطبيعي أن تتأثّر فلسطين بالأفكار الطبية السائدة في تلك الحضارات، فالطرق الصحّية القديمة في بلدان الشرق الأدنى القديم، وفي الحضارات القديمة عموماً، بقيت على حالها لمدة آلاف من السنين، والتصوّرات والمعتقدات حول مفاهيم الصحة وأسباب حدوث المرض ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالآلهة والسحر، والأطباء القدامى كانوا من السَحَرة والكَهَنة الذين حصلوا على معرفة بجمع الأعشاب الطبية وتحضيرها واستخدامها في علاج الأمراض وكانت لديهم بعض المعارف حول عمل الجسم البشري ووظائفه.

كانت المهنة الطبية وممارسة التطبيب والعلاج في مصر القديمة واليونان القديمة من اختصاص الكهنة في المعابد، وساد الاعتقاد بأن الطب منحة الآلهة للإنسان، وكان (أمحوتب) إله الطب في مصر، وإسكولا بيوس إله الطب في بلاد اليونان القديمة، ونظيره في فلسطين وسوريا إله يُدعى إشمون ESHMUN، كان له معبد في صيدا، ووجدت آثار عبادته في القدس في بركة بيت حسدا (BETHESDA)[1].

وتحدّد المصادر بأن هذه البركة كانت في الواقع بركتين اثنتين تقعان داخل باب الأسباط قرب كنيسة القديسة حنّة (المدرسة الصلاحية) إلى الغرب، وينسب العهد الجديد إلى بركة بيت حسدا قدرة على شفاء الأمراض.

ويذكر أن السيد المسيح أبرأ فيها المُقْعَد الذي ظلّ ينتظر دوره /38/ سنة للاغتسال في مياهها، وقد اكتشفت هذه البركة سنة (1871م)، ودلت الحفريات أنها كانت تستعمل معبداً لشفاء الأمراض عند الرومان، وفي القرن الرابع الميلادي كان لها خمسة أروقة لاستقبال المرضى، وظلت تستعمل لذات الغرض في العصر البيزنطي، وكانت تسمّى في ذلك العهد بركة الغنم PROBATIC POOL، ثم سدّت واندثرت مع الزمن[2].

تضافرت عناصر عدّة ومؤثّرات في تاريخ الطب في القدس وهي:

أولاً: الموروث الشعبي الطبّي المحلّي – الفلسطيني – المتناقل من أقدم العصور، والمعتمد على الأعشاب والنباتات الطبية المحلية، والتي تشتهر بها البيئة الفلسطينية.

ثانياً: المؤثّرات الخارجية من تراث الأمم الأخرى، البابلية، المصرية القديمة.

ثالثاً: التراث المحفوظ في أديرة القدس، من المخطوطات اليونانية التي كان يتدارسها الرهبان والقسس في القدس والمنطقة المحيطة بها.

رابعاً: التراث الطبي العربي القديم في الفترة الأموية وما قبلها وما بعدها، والذي انتقل إلى فلسطين.

الأمراض والطب في العهد الجديد:

ورد ذكر الأمراض في العهد الجديد كإثبات على قوة السيد المسيح عليه السلام، وقدرته الخارقة على شفاء المرضى، ومن أسماء الأمراض التي يتردد ذكرها في الإنجيل: الأمراض العقلية والنفسية، ومنها الجنون والبلاهة والهستيريا، والصَرع والشلل، وبعض حالات الحمّى، وتؤكد الأناجيل أن السيد المسيح شفى عدّة مجذومين، وأبرأ

مشلولين وعمياناً وصُمّاً، وكانت تكفي كلمة أو لمسة منه ليبرأ المريض على الفور، ومن الواضح أن إيمان المريض بالسيد المسيح وقدراته شرطاً للشفاء، أما الكلمة التي كان يقولها فهي اسم الله غالباً[3].

ويقدم لنا إنجيل متّى أمثلة على ذلك:

إنجيل متّى، الإصحاح (8):

(قال للمفلوج: قُم واحمل فراشك واذهب إلى بيتك، فقام ومضى إلى بيته).

إنجيل متّى، الإصحاح (9):

[قال يسوع لأعميين: أتؤمنان أنيّ أقدر أن أفعل هذا (أي أن يشفيهما)، قالا له: نعم يا سيد. حينئذ لمس أعينهما قائلاً: بحسب إيمانكما ليكن لكما. فانفتحت أعينهما].

إنجيل متّى، الإصحاح (9):

[إنسان أخرس قدّموه إليه (السيد المسيح)، فلما أخرج الشيطان تكلم الأخرس].

إنجيل متّى، الإصحاح (10):

(ثم دعا تلاميذه الإثني عشر، وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مريض).

وقال لتلاميذه: اشفوا مرضى، طهّروا بُرصاً، أقيموا موتى، أخرجوا شياطين. مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا).

ويعتبر القدّيس مارلوقا، من رجال القرن الأول للميلاد، وصديق القديسين بولص ومرقص، ومؤلف الإنجيل الثالث وأعمال الرسل، من الشخصيات المسيحية التي اشتهرت بالطب ومعالجة الأمراض، وكان فيما يبدو طبيباً يونانياً، كما قيل بأنه كان مُصّوراً (رسّاماً) ومات شهيداً، وبذلك أصبح القديّس الراعي للأطباء والفنانين، وله عيد يقع في اليوم الثامن عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) من كل عام[4].

طيماوس الفلسطيني: في العصر اليوناني (333-63 ق.م)

استولى الإسكندر الأكبر على فلسطين بما فيها القدس عام (333ق.م)، وبعد وفاته استمر خلفاؤه المقدونيون والبطالمة في حكم المدينة، واستولى عليها في العام نفسه بطلميوس وضمَّها مع فلسطين إلى مملكته في مصر عام (323ق.م)، ثم في عام (198ق.م) أصبحت تابعة للسلوقيين في سوريا بعد أن ضمَّها سلوقس نيكاتور.

في هذه الفترة شاعت المعارف اليونانية في الشرق الأدنى بما في ذلك الطب، ويذكر النديم في كتاب (الفهرست) أن طبيباً فلسطينياً يدعى طيماوس كان من أوائل المفسِّرين لكتب أبقراط[5]، ومن المرجّح أن طيماوس عاش في القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد، لأن ابقراط قد توفي في القرن الرابع قبل الميلاد (375ق.م).

كان التأثير اليوناني في ثقافة الشرق الأدنى واضحاً. فقد أنشأ العالم اللاهوتي المسيحي أوريغن ORIGEN اليوناني الأصل، مدرسة في قيسارية (جنوبي حيفا) في القرن الثالث الميلادي، وبالتحديد عام (230م) دعيت بمدرسة قيسارية، ودرّس فيها اللاهوت والفلسفة وعلوم الطبيعة والمنطق والهندسة الرياضيات والفلك حتى وفاته عام (254م)، وحاول الربط بين العقيدة المسيحية والفلسفة اليونانية، وبرزت بالتالي في مدرسة قيسارية ملامح من الفلسفة الأفلوطينية المحدثة، والتي أعقبت عهد الفلسفة اليونانية[6].

هوامش الفصل الأول

(1) PENELOPE JOHNSTON . PEFQS،TRADITIONS IN ARABIC MEDICINE VOL 107 (1975) PP.25.

(2) العسلي: كامل جميل – من آثارنا في بيت المقدس (ص125– 126).

(3) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – ص21.

(4) ذات المرجع – ص 401.

(5) النديم – الفهرست – ص401.

(6) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – ص 23.

الفصل الثاني

الطب في القدس خلال العصر الإسلامي الأول

(16-492هـ / 637-1099م)

نجحت الجيوش الإسلامية في فتح بلاد الشام عام (15هـ/636م)، وكان بين أفرادها من يعنى بالجرحى والمصابين بالكسور من جرّاء الحروب، ومن يهتم بخيول الحرب، وإخراج السهام وجراح الأزجّة (جمع زجّ، وهو الحديدة التي في أسفل الرمح) من أماكن انغراسها في أجساد المقاتلين[1].

وقد أورد المؤرخ محمد بن جرير الطبري رواية عن شعيب عن سيف عن مجالد بإسنادهما، وسعيد بن المرزبان، (قالوا بعث عمر الأطبَّة إلى العراق) ضمن الإمدادات التي أرسلها عمر بن الخطاب إلى الجيوش الإسلامية في العراق، عدا العشّابين والبياطرة الذين رافقوا الحملة عند تسييرها[2].

ونستطيع أن نتبيّن الخطوط العريضة للتراث الطبي العربي في بلاد الشام وفي القرن الأول للهجرة/ السابع الميلادي. وتقوم على إتباع بعض القواعد الصحّية للوقاية من الأمراض، والاعتماد على المعالجات، وأغلبها من المعارف الصحية العامة التي كان يمارسها العرب منذ أقدم الأزمنة، مثل: التمسيد، الكيّ، الحجامة، استفراغ فضلات البدن بالمقيئات، والمسهلات، ويتجلّى ذلك في وصايا الطبيب تياذوق (ت 90هـ/719م).

- لا تأكل طعاماً وفي معدتك طعام.
- لا تأكل ما يضعف أسنانك على مضغه، فتضعف معدتك عن هضمه.
- لا تشرب الماء على الطعام حتى تفرغ ساعتين، فإن أصل الداء التخمة.
- لا تأكل من اللحم إلا فتيّاً، وإذا تغدّيت فنمّ، وإذا تعشّيت فامش ولو على الشوك، ولا تدخل بطنك طعاماً حتى تستمرئي ما في جوفك، ولا تأوي إلى فراشك حتى تدخل الخلاء، وكُلّ الفاكهة في اقبالها ووفرّها في أدبارها، ولا تحبس البول وإن كنت راكباً، وعليك في كل فصل قيئة ومسهلة، ولا تشرب الدواء إلا في علّة[3].

يصعب التوثيق التاريخي للطب والأطباء في القدس وبقية مدن بلاد الشام في القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة، لأسباب عدّة. منها أن بغداد عاصمة الخلافة العباسية استأثرت بنصيب ملحوظ بمظاهر الازدهار عن سواها، نتيجة نشاط بيت الحكمة فيها، وتواصل هجرة الأطباء الجند يسابوريين إليها، وهي هجرة بدأت في القرن الثاني للهجرة.

كما أن الاهتمام بتسجيل وتوثيق نشاط الأطباء والعلماء في مجال العلوم التطبيقية خلال تلك الفترة، لم يشهد الزخم المعروف الذي بدأت تباشيره بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

ولا بد من الإشارة إلى شخصيتين مهمّتين ارتبطتا بالعلوم القديمة – الفلسفة والطب والفلك والكيمياء والرياضيات والعلوم البحتة والطبيعية إجمالاً، وترجمتها ونشرها، وكانت لهما علاقة وثيقة بفلسطين وبالقدس بالذات.

الشخصية الأولى هي خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفي (85هـ/704م) أو (89هـ/708م) وكان يلقّب حكيم بني مروان، وذكر بأنه أول من أمر بترجمة الكتب اليونانية والقبطية في الطب والكيمياء إلى العربية[4].

وقد أورد المؤرخ الدمشقي ابن عساكر رواية عبد الرحمن بن سليمان الخولاني عن مشاهدته لخالد بن يزيد وهو يحاضر في صحن الصخرة ببيت المقدس، وعمر بن العزيز – الخليفة الأموي فيما بعد (ت 101هـ/720م) يستمع إليه، وأن عمَر سأل خالد بن يزيد سؤالاً واستمع إلى إجابته، وكان لاتصاله بالراهب مريانس النصراني أثره في اهتمام خالد بالطب والكيمياء والنجوم، كما يذكر ابن خلكان عنه: [كان من أعلم قريش بفنون العلم، وله كلام في صناعة الكيمياء والطب، وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما. واخذ الصناعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس الراهب الرومي، وله فيه ثلاث رسائل تضمّنت إحداهن ما جرى له مع مريانس الراهب المذكور، وصورة تعلّمه منه والرموز التي أشار إليها][5].

وروى خالد في ديوانه قصة اجتماعه بمريانس وملخّصها أن غالباً – مولى خالد بن يزيد – هو الذي اتصّل بالراهب مريانس، السائح حينذاك في جبال المقدس، عن طريق رجل مقدسي جاء إلى خالد ناصحاً، وقد علم بكلف خالد بن يزيد بتعلّم الصنعة، ولما كان خالداً راغباً في إحضار مريانس، فقد جدّ الوسيط المقدسي حتى عثر عليه، وأحضره إلى قصر خالد في حمص، فتعلّم منه خالد بن يزيد صناعة الطب والكيمياء، وكيفية استحضار العقاقير الطبية[6].

وقد ورد في مخطوطة محفوظة بدار الكتب الظاهرية (مكتبة الأسد) بعنوان:

(ديوان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وما جرى بينه وبين الراهب مريانس من الأسئلة العجيبة)، برقم /7614/، الوصف التالي لاجتماع خالد بن يزيد مع مريانس.

[قال غالب: كان من سبب خالد ومريانس الرومي السائح في جبال بيت المقدس أن خالداً خرج ذات يوم متنزّهاً إلى دير مرانّ بدمشق، وكان مغرماً بالصنعة كلفاً بها، ولا يؤثر شيئاً عليها، وكان لا يفتر عن السؤال عن أمرها والبحث فيها، وعمّن يرجو أن يجد عنده علماً منها ومعرفة بها.

فأتاه رجل وطلب الأذن عليه فأدخل عليه، فسّلم الرجل سلاماً بليغاً. وقال الرجل بعد سلامه: (إني رجل من بيت المقدس وقد أتيت إليك بنصيحة ما فاز أحد بمثلها. فقال له خالد: وما نصيحتك؟ قال: بلغني أنك تطلب الصنعة، فأتيت لأخبرك عن رجل رومي في جبال بيت المقدس أنا عارف بمكانه يهدي كل سنة إلى بيت المقدس من الذهب شيئاً كثيراً][7].

[قال غالب: فوجّهني معه وجماعة من الموالي، فسرنا في فيافي وقفار ترفعنا أرض، وتضعنا أخرى. فلبثنا أياماً في طلب الشيخ السائح، ثم ظفرنا به، فإذا هو شيخ كبير ضعيف طويل، حسن الصورة، بهي المنظر، عليه جبّة مسح من شعر كأنه جلد شاة بالية، ففرحنا به، ورفقنا به، وداريناه حتى قدمنا به على خالد وأدخلنا عليه.

ففرح به فرحاً شديداً، ما رأيته فرح بمثله قطّ. ثم التفت إليّ يسائلني عن مسيرنا في البداية والعودة، فأخبرناه بأمرنا جميعه.

ثم أقبل على الشيخ فسأله عن اسمه ومنشئه.

فقال: اسمي مريانس الرومي.

فقال له خالد: كم لك منذ سحت في هذه الجبال؟

قال له: بعد موت هرقل الملك بأربع سنين.

قال له: يا مريانس اجلس. ورفع مجلسه، وأعجب من سمته وأدبه. ثم قال له: يا مريانس، لو كنت في كنيسة أو دير كان أرفق.

فقال: أصلح الله الأمير، الخيرة إلى الله عز وجل، بيده يفعل ما يشاء. قد صدق الأمير، الراحة في ذلك أكثر، والتعب في السياحة أشّد وأصعب، وإنما يحصد المرء ما زرع، وأرجو أن تكون الخيرة فيما أنا فيه، برحمته ومنه إن شاء الله. لأنه لا يدرك الإنسان الراحة إلاّ أن يكدّ نفسه][8].

ويبرز مثل ملموس على التأليف العلمي في فلسطين في عهد الدولة الأموية، يتعلق بالراهب يوحنّا الدمشقي المشهور، ويعتبر من قنوات الاتصال الرئيسة للعلم اليوناني، ففي الثلاثينيات من عمره اعتزل عمله في رئاسة بيت المال بعد أن خلف والده، والتزم حياة النسك والزهد، واعتكف في دير مارسابا الواقع في الجبال الجرداء بالقرب من القدس حتى وفاته عام (131هـ/ 748م).

كان يوحنّا الدمشقي علاّمة متعدّد المواهب تتراوح معارفه بين الأدب والفلك والموسيقى، وأصبح من أعظم علماء اللاهوت الذين أنجبتهم الكنيسة الشرقية، ووضع عدة رسائل وكتب. كتب يوحنّا الدمشقي في دير مارسابا كتاباً ضمّ في فصوله أبحاثاً عن نشوء الكون وتطوّره، وأجزائه: السماء وكرة الأرض ومادّتها وحركتها والعناصر والكواكب ومدار البروج والظواهر الجوّية، والأفكار الجغرافية التي عرفها قدماء اليونان.

والواقع أن يوحنّا الدمشقي قد درس العلوم اليونانية كلها، الإنسانية والطبيعية، وانعكست دراساته في كتابه EKDOSIS AKRIBES، وهو دليل واضح على تدريس العلوم الذي كان متاحاً في فلسطين في ذلك الوقت[9].

وقد برزت مجموعة من الأطباء في العصر الأموي مثل:

ابن أثال الخبير بالأدوية المفردة والمركّبة والسموم، وكان من الأطباء المتميّزين في دمشق، ولما ملك معاوية بن أبي سفيان اصطفاه لنفسه وأحسن عليه، وأصبح مستشاره الطبي[10].

وأبو الحكم الدمشقي، وابنه الحكم الدمشقي اللذين استطبّهما معاوية بن أبي سفيان[11]، والطبيب السكنّدري عبد الملك بن أبجر الكناني، الذي اتصل بالأمير عمر بن عبد العزيز حين كان مع أبيه الوالي يومئذ فلما ارتقى عمر سدّة الخلافة الأموية في دمشق عام (99هـ/717م)، استدعاه وعيّنه في أنطاكية ليمارس الطب ويعلّمه فيها، وقد لعب هذا الفليسوف والكيماوي والطبيب دوراً هاماً في نقل علوم مدرسة الأسكندرية ومعارفها إلى أنطاكية وحرّان[12].

والطبيب تياذوق الذي استطبّه الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان واسع الخبرة في الطب وله من المؤلفات (كنّاش طبي) وضعه لإبنه وكان أحد تلاميذه، وبحث فيه مواضيع طبية شتّى، في ما يخصّ أمراض المعدة، وأمراض الرئة، وذات الجنب، والقولنج، وأمراض الطحال والكبد، وغير ذلك[13].

وتلميذه الطبيب فرات بن شحناثا، والذي خدم بعد وفاة أستاذه الحجّاج وعاش حتى خلافة أبي جعفر المنصور، وقد خدم وليّ عهده عيسى بن موسى إلى جانب طبيبه موسى بن إسرائيل الكوفي المتوفي (222هـ/836 م)[14].

وطبيب النساء بولس الآجيني PAUL OF ANGINA (ت43هـ/64م) في مصر، وعرف بين الأطباء كجرّاح قدير وبالأخصّ الأمراض النسائية والتوليد فلقّبوه بالقوابلي، وله مؤلفات نقلت إلى العربية منها: كتاب تدبير الحبالى يبحث أصناف الولادة وأسباب الولادة العسرة، وكتاب علل النساء.

نصل إلى نتيجة مفادها أن غالبية الأطباء في فلسطين حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي كانوا من النصارى. كما يؤكد ذلك العالم الجغرافي شمس الدين بن أحمد المقدسي (ت 390هـ/1000م) عندما تحدث عن فلسطين، قال: [أكثر الأطباء والكَتَبة (أي في فلسطين) كانوا من النصارى][15].

ومن خلال البحث عن أسماء لأطباء مقادسة أو فلسطينيين في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، لا نجد إلا طبيباً واحداً اسمه بولس بن حنّون، فقد وردت إشارة في سيرة الطبيب سلمويه بن بنّان (ت226هـ/841م) طبيب الخليفة المعتصم تفيد أن مجمعاً للمتطبّبين في بغداد كان ينعقد دورّياً في مجلس أبي دلف العجلي قبل عقد الولاية له على قزوين وزنجان (شمال إيران) ونواحيها، وكان المجلس يضمّ من بين الأطباء بولس بن حنّون الذي وصف بمتطبّب فلسطين[16].

ويظهر من سياق الأحداث بأن هذا الطبيب من جملة الأطباء السريان في بغداد، ثم انتقل بعد ذلك إلى فلسطين وأقام فيها يطببّ أهلها، كما يستفاد من العبارة التالية التي رواها (ابن أبي أصيبعة) على لسان رجل يدعى يوسف بن إبراهيم:

[... طلع علينا بولس بن حنّون المتطبّب، الذي هو اليوم متطبّب أهل فلسطين، وهو منصرف من عند بشير، فسأله عن خبره فأجابه بكلمة سريانية معناها بئس][17].

كما تذكر المصادر عن الطبيب المشهور جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع (ت396هـ/1005م) والذي ينحدر من عائلة كان أكثر أفرادها أطباء في بغداد، بأنه زار القدس وصام بها يوماً واحداً[18].

من نافلة القول أنه ليس معقولاً أن يكون بولس بن حنّون هو الطبيب الوحيد الذي عرفته القدس أو فلسطين خلال هذه الفترة الطويلة، والأمر يتعلّق بأطباء وجّراحين وعشّابين ومجبّرين وحجّامين وعطّارين ومحضّرين للأدوية كما سنوضّح لاحقاً، كانوا يقدّمون خدماتهم الطبية والعلاجية لعامة الشعب وللخاصّة، وقد يكونون متفاوتين في قيمتهم العلمية، ولكن عدم ظهور مؤلفات أو آثار مكتوبة لهم، أو ضياعها قد يكون أحد الأسباب في إغفالهم.

هوامش الفصل الثاني

(1) الموسوعة الفلسطينية – ق2، م3، ض389.

(2) ذات المصدر.

(3) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 179 – 180.
(4) النديم – الفهرست – ص 354.
(5) ابن خلكان – وفيات الأعيان (2 / 224).
(6) الموسوعة الفلسطينية – ق2، م3، ص390.
(7) مخطوط الظاهرية – رقم (7614).
(8) ذات المصدر.
(9) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – ص 45 – 46.
(10) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 171.
(11) ذات المصدر – ص 175 – 177.
(12) ذات المصدر – ص 171.
(13) ذات المصدر – ص 179.
(14) ذات المصدر – ص 230 – 232.
(15) المقدسي – أحسن التقاسيم – ص 183.
(16) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – ص 44.
(17) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 238.
(18) ذات المصدر – ص 213.

الفصل الثالث

عائلة التميمي الطبّية المقدسية

محمد بن أحمد بن سعيد التميمي المتوفي (390هـ/1000م)

من أكبر العلماء الذين عرفتهم فلسطين عبر العصور وأغزرهم إنتاجاً وعلماً، امتدّت شهرته كعالم في الطب والصيدلة بحيث شملت العالم الإسلامي بأشمله في زمنه.

ولد في القدس ونشأ بها، وقرأ فيها علم الطب، وتجوّل في مدن أخرى بفلسطين في طلب العلم والفائدة حتى تميّز واطّلع على دقائق صناعة الطب، واكتسب خبرة في تركيب المعاجين والأدوية، واستقصى معرفة أدوية الترياق الكبير (الفاروق) وطريقة تركيبه، وعمل منه شيئاً كثيراً على أتمّ ما يكون من حسن الصنعة حتى سمّي بالترياقي.

وبسبب شهرته دعي إلى مدينة الرملة بفلسطين واختصّ بوالي المنطقة الساحلية كيافا وضواحيها الحسن بن عبيد الله بن طغج، وصار من رجال بلاطه، وقام بتركيب أدوية ومعاجين من ابتكاره لذلك الوالي.

بعد زوال الدولة الأخشيدية عام (458هـ / 958م) وتوّلي المعزّ الفاطمي السلطة في مصر، وقيام الدولة الفاطمية فيها، سافر التميمي إلى مصر، واتصل بالخليفة المعزّ والخليفة العزيز، وصنع لهما الأشربة والأدوية، ولزم بلاط الوزير يعقوب بن يوسف بن كلّس (ت 380هـ/991م) وأهداه أشهر مؤلفاته «مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرر الأوباء».

بعد استقراره بالديار المصرية أتيحت للتميمي فرصة الاجتماع والمحاورة بأطبائها بالإضافة إلى الأطباء الواردين من المغرب، وحاضرهم وناظرهم. وقد تميّز برجاحة العقل وتوّخيه الحق والجدّية وكان منصفاً في مذكراته ومناقشاته، متّبعاً في ردوده الحقيقة والمنطق السليم[1].

اشتهر التميمي بمعرفته الجيدة بالأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية، وأصبحت مؤلفاته مرجعاً لكثير من العلماء الذين جاؤوا من بعده. ومنهم الطبيب المصري علي بن رضوان، وجاء بعد التميمي بثمانين سنة، وكان من ضمن مؤلفاته: تعليق من كتاب التميمي في الأغذية والأدوية[2].

وكذلك موفق الدين عبد اللطيف البغدادي في القرن السابع الهجري فقد ألّف كتاباً في اختصار مادة البقاء للتميمي[3].

أما العالم النباتي الشهير ضياء الدين ابن البيطار فقد ذكر التميمي أكثر من سبعين مرة في كتابه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)، نقلاً عن كتابه المرشد.

أساتذته:

درس التميمي الطب على أطباء وحكماء بيت المقدس، وهم:

- الأنبا زخريا بن ثوابة

راهب قبطي حكيم فاضل، كان مقيماً في القدس في المائة الرابعة للهجرة، وكانت له معرفة حسنة في العلوم الحكمية والطبية، ونظر مستقصي في أمر تركيب الأدوية ومفرداتها، فتتلمذ له التميمي ولازمه وأخذ عنه فوائد

وجملاً كثيرة، وتراكيب لأدوية منها: صفة سفوف نافع من خفقان القلب ورجفانه، والوحشة والفزع الكائن في مرض المالنخوليا، وسوء الفكر[4].

- الحسن بن محمد بن أبي نعيم، أبو علي:

اشتهر في أواسط القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، ويقول عنه القفطي: [طبيب فاضل كامل مذكور في زمانه، كان مقيماً بالبيت المقدس، وهو أجّل مشايخ التميمي الترياقي المقدسي، وعنه أخذ من هذه الصناعة نوعاً متوفراً][4].

- أحمد بن سعيد التميمي:

والد محمد التميمي، ومن الأطباء أيضاً، ألا أنه لم يبلغ شأن ولده في مهنة الطب، ربما لقلة تفرّغه، واهتمامه بأمور أخرى، ويحكى عنه أنه سكر مرّه إلى حد الثمالة وفقدان الوعي، فسقط وهو لا يعي من موضع عال في الخان الذي يقيم فيه، فلّما أصبح انصرف إلى عمله وقضاء أشغاله، وعندما أخبره صاحب الخان بما حصل معه، أقبل يضجّ ويتأوّه، ولم يهدأ إلا بعد أن فصده الطبيب، وجبّر مفاصله المتوهنة[6].

كان مصدراً غنياً لنقل المعلومات الطبية إلى ولده محمد فسجّل عنه كثيراً من التراكيب الدوائية.

- سعيد التميمي المقدسي:

من الأطباء، والمعلم الأول لحفيده محمد التميمي، وقد أورثه العناية بالنباتات الطبية، والاهتمام بتركيب الأدوية، إن كان لم يصب من الشهرة مثل حفيده محمد، فمن المؤكد بأنه كان معروفاً على صعيد القدس وضواحيها بالحكمة والطب وتركيب الأدوية والعقاقير.

- الطبيب إبراهيم الكوفي ثم الفلسطيني:

كوفي الأصل، استقر في فلسطين، ومارس الطبابة خلال القرن الرابع الهجري. كانت ترابطه علاقة صداقة وتعاون مع التميمي على صعيد تركيب أخلاط الأدوية، وقد ورد اسمه في كتاب (مادة البقاء) [7].

- أبو الحسن الصنعاني الإقليدسي:

حكيم وتاجر من الثقات، صنعاني الأصل، جال في مناطق اليمن وحضر موت، وعرف كثيراً من أمور أهلها وعجائبهم. وصلت رحلاته إلى بلاد الشام ومصر. التقى التميمي وحاز على إعجابه فروى عنه بعض الروايات التي تواترت عن عادات وتقاليد أصقاع اليمن[8].

أبو الفتح المتطبّب:

من أطباء بيت المقدس، تتلمذ عليه التميمي في مراحله الأولى، وكان يحضر مجالسه الطبية مع غيره، ويسجّل ملاحظاته، وما يمليه عليهم من شروحاته لكتب جالينوس الطبية، واستفاد منه التميمي في مجال تراكيب الأدوية وطرق تصنيعها[9].

والواقع أن التميمي طلب الحكمة والعلم من مظانّها، فكان كثير الارتحال لطلب العلم والمعرفة، وتتلمذ على كثير من العلماء والحكماء، وصادق العديد من الرحّالة والتجار وذوي الخبرة في أعمالهم، وأخذ عنهم مشاهداتهم وما أطلعوا عليه خلال رحلاتهم. ومنهم:

- أحمد بن أبي يعقوب مولى بني العباس:

مصدر ثري بالمعلومات حول الأحجار الكريمة وأنواعها، والعود والعنبر وأصنافه وغيره من العقاقير المستوردة إلى بلاد الشام.

كان صديقاً لجده سعيد التميمي، وكثيراً ما نقل عنه التميمي من مرويات جدّه[10].

كما ذكر التميمي بعض الجماعات من ذوي العلم والخبرة بدون تحديد للأسماء أو الجنسيات، فيقول:

– أخبرني جماعة من أهل المعرفة بالعطر وأصنافه وأنسابه[11].

– أجمع العلماء بأمر العطر وأعمال الطيب[12].

– قال لي جماعة من أهل العلم بالعنبر[13].

– قال قوم من أهل العلم[14].

– جماعة من أهل العلم والمعرفة بالعود[15].

كما نقل عن مصادر مكتوبة لم تصلّنا، وهي:

كتاب لمحمد بن العباسي المسكي:

وهو من العلماء المختصّين بصناعة العطر وأعمال الطيب الذين لم يحفل العلماء بذكر تراجمهم في الكتب[16].

كتاب لأبي بكر بن محمد بن أحمد المرندج المعروف بابن البواب:

لعله كان يبيع اليرندج أو يصنّعه، فلقّب بذلك.

واليرندج أو الأزندج جلد أسود تعمل منه الخفاف، وهو معرّب (رنده) بالفارسية[17].

مؤلفاته:

– رسالة إلى ابنه علي في صنعة الترياق الفاروق والتنبيه على ما يغلط فيه من أدويته ونعت أشجاره الصحيحة وأوقات جمعه وكيفية عجنه وذكر منافعه وتجربته.

– كتاب آخر في الترياق، وقد استوعب فيه تكميل أدويته وتحرير منافعه.

– كتاب مختصر في الترياق.

– كتاب الفحص والأخبار.

– مقالة في ماهيّة الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه.

– امتزاج الأرواح.

– جيب العروس وريحان النفوس.

– كشف السر المصون والعلم المكنون في شرح خواص القرآن، ولعله نفس كتابه منافع خواص القرآن العزيز، والموجود منه نسخ مخطوطة متعدّدة في المكتبة الظاهرية بدمشق. بالأرقام التالية: 1369 (43 التصوف)، 1370 (44 التصوف)، 6241، 6613، 7365.

– كتاب المرشد إلى جواهر الأغذية وقوى المفردات في الأدوية.

ليس له نسخ كاملة، ولكن توجد أجزاء منه في:

مكتبة باريس – أول (1/2870)، ومنه قطعة في مكتبة بطرسبوع ثان (4: 182)، وجزء في المكتبة البريطانية (OR. 9010).

– مادة البقاء لإصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرر الأوباء:

صنّفه التميمي حوالي عام (370هـ/980م) في مصر، وهو أكبر الكتب حجماً لموضوع تلوث البيئة في التراث العربي، ويعتبر موسوعة في الطب الوقائي وحماية البيئة في القرن الرابع الهجري، وتعبيراً عن الروح العلمية السائدة في ذلك الوقت.

كان الكتاب في حكم المفقود عند الباحثيين، إذ لم تذكر المراجع أو فهارس المخطوطات أي نسخة مخطوطة منه، واعتبره الجميع في حكم المفقود.

فالباحث سامي حمارنة يذكر في المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام وفلسطين المنعقد عام /1983/، قائلاً: [... ولست أعرف منه نسخاً باقية غير اقتباسات متفرّقة في كتب الأطباء اللاحقين][19].

ويوافقه على ذلك الباحث كامل جميل العسلي فيذكر عام / 1984 /: [ومن المؤسف أن هذا الكتاب قد ضاع. ولا نعرف منه سوى بعض الإشارات في كتب الأطباء اللاحقين، ويبحث الكتاب بصورة عامة في حفظ الصحة والوقاية من الأمراض وخاصة الأمراض الوبائية، كما يستّدل من عنوانه][20].

ولكن المفاجأة تكمن بأن النسخة المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب كانت ترقد في المكتبة المارونية بحلب، وقد أعلن عنها الطبيب سلمان قطاية في كتابه عام / 1975 /[21].

أهدى التميمي كتابه [مادة البقاء] إلى الوزير المعروف يعقوب بن كلّس، اعترافاً بأفضاله عليه، كما ذكر في المقدمة:

[أما بعد أطال الله بقاء الوزير الأجّل مؤيّداً بالظفر مكلوءاً من الغير... ولما كانت أنعمه إليّ شاملة وأياديه إليّ واصلة، من تشريفه إياي بخدمته ونظره إليّ بعين رعايته، واصطناعه إياي دون ذوي الحرمة به، فكنت غرس يده العالية، وغذي نعمته النامية، والمتفيئ بظل دولته حرسها الله من الغير وحصّنها من سوء القدر، رأيت أن أؤدي حقّ من بوأني هذه المكانة وأفاض عليّ هذه النعمة، أن أتأتى لسلامة نفسه النفسية من الأمراض، وأتلطّف في استنقاذها من الأعراض، بتأليف كتاب يبلغ به تعديل مزاجه ودفع الأعراض عن نفسه الجليلة من يتوّلى خدمته ويخّتص بالقرب منه... وأنا أرجو بإقبال الوزير الأجّل، أدام الله علوهّ، وسعادة جدّه، وعلو نجمه، ويمن طائره، إذ جعلت هذا الكتاب هدية إليه وتحفة له موسوماً بإسمه الجليل][22].

يمكن تلخيص محتوى الكتاب في المواضيع التالية:

1– آراء أبقراط وجالينوس وأرسطو وأهرن حول موضوع التلوّث.

2– شرح أنواع الهواء الملوّث في الأقطار الإسلامية (اليمن والحجاز ومدن الشام وفارس...) وعلاقتها بالفصول والأماكن، ويعتبر التميمي ريح السموم وغازات البراكين ضمن أنواع التلوّث.

3– الأمراض الناجمة عن التلوّث وكونها أمراضاً معدية.

4– الطرق الصحّية للوقاية من العدوى عند حدوث الوباء.

5– أنواع البخور التي تعالج تلوّث الهواء واغلبها من تركيب المؤلف التميمي.

6- معالجة تلوّث المياه الآسنة الضارة صحّياً، وهي أيضاً تنتج ملوّثات الهواء.

7- أدوية وعقاقير تقوّي جهاز المناعة ضد العدوى والأوبئة.

8- استعمال العطر والموسيقي والعلاج النفسي لتجنب العدوى والوباء.

9- تعريف الجدري والحصبة وعلاجهما.

10- أنواع العلاجات لمن أصيبوا بالأمراض الوبائية، وتشمل المعاجين والأشربة والمساحيق والعطورات والبخورات وغيرها.

والملاحظ أن غالبية العلاجات المذكورة في الكتاب من إعداد المؤلف، أما الدواء الذي ليس من ابتكاره فينسبه صراحة إلى مصدره بكل أمانة وموضوعية.

يعّد التميمي أول عالم عربي وضع كتاباً كاملاً عن التلوّث وأسبابه وآثاره على الإنسان، والأمراض الناتجة عنه، وكيفية الوقاية من التلوّث والأمراض قبل حدوثها، ومعالجتها بعد حدوثها.

كما أوضح أهمية الطب الوقائي ومعالجة عناصر البيئة من هواء وماء، وتحسين خصائصها قبل استثمارها، بالإضافة إلى ربطه بين عناصر البيئة مجتمعة، وتوضيحه بأن تلوث إحداها يستدعي بالضرورة تلوّث العناصر الأخرى.

كما أوضح دور العوامل الجوية في وقوع الأمراض، وشرح بأنها عوامل مساعدة على حدوثها، وأن الأمراض تنشأ عن خمائر يحملها الهواء معه وتستقر في جسم الإنسان إلى أن تظهر الظروف الجوية المناسبة فتنشط هذه الخمائر وتسبّب الأمراض.

والواقع أن التميمي يطرح أفكاراً مقاربة للتصوّرات الحديثة عن أسباب نشوء الأمراض[23].

ورغم أن التميمي خصّص كتابه في الأساس للبحث في تلوّث الهواء، فهو يقدم آراء قيّمة في مجال تلوّث المياه ومعالجتها، تتقاطع مع الآراء العلمية الحديثة، مثل غلي المياه وتصفيتها بأوعية خزفية قبل تناولها وغيره.

كتاب الترياق:

الترياق: معجون مركّب من سبعين ونيّف من أصل نباتي وحيواني ومعدني، كان القدماء يعدّونه شافياً من كل أنواع السموم، ويحافظ على الصحة، ويعالج أمراضاً كثيرة، أما استخدامه الرئيس فهو دواء نافع من لدغ الهوام والحشرات السامّة والسموم، وهو ما يمنع ميكانيكياً امتصاص السم من المعدة والأمعاء. وينطبق وصف الترياق بأنه دواء، لأن الدواء بالتعريف هو: مادة أو مركّب يقدّم على أن له خواص شافية أو واقية تجاه الأمراض[24].

ومن جملة الأسباب التي دفعت القدماء للبحث جاهدين عن الترياقات هو الخوف من السموم التي قد يتعرضون لها بسبب سوء الحظ أو العداوة، ويذكر المؤرخ المقريزي (ت 845هـ/1441م) أن أولى اهتمامات الخليفة الفاطمي بعيد تنصيبه هو السؤال عن الترياق الفاروق، والطلب بتحصيل أصنافه وعقاقيره ليستدرك عمله قبل انقطاع الحاصل منه، ويؤّكد في ذلك تأكيداً عظيماً [25].

وتجمع المصادر بان الترياق من أصل يوناني قديم، وعبر رحلته الطويلة تعرض لكثير من الزيادة والتبديل والحذف في أدويته ومقاديرها وأنواعها، ومع مرور الزمن أخذ مكاناً ووجوداً في الدساتير الطبية كدواء مركّب لا يستغنى عنه.

أن الطبيب القديم كان يفترض فيه آنذاك معرفة ضروب النباتات والحشائش والأعشاب الطبية وخواصها ليصف منها العلاج لمرضاه. وقد ساهم ذلك في ازدهار الدراسات الصيدلانية، وهو العلم الذي لا ينفصم بحال من الأحوال عن الطب.

ومن الكتب الهامة للتميمي: رسالة إلى ابنه علي في صناعة الترياق الفاروق والتنبيه على ما يغلط فيه من أدويته، ونعت أشجاره الصحيحة وأوقات جمعه وكيفية عجنه، وذكر منافعه وتجربته.

وهذا يرشدنا إلى أن ولده علي قد سار في خطى والده في احتراف صناعة الطب والمعالجة من الأمراض والسموم.

يشرح هذا الكتاب بالتفصيل الترياق وتركيبه، ويعطي مثالاً بارزاً على تطوّر الصناعة الدوائية في القدس وبلاد الشام خلال القرن الرابع الهجري، وإنتاج أنواع مختلفة من الأدوية والعقاقير على شكل: معجون، مسحوق،...

هذا الكتاب مازال حتى يومنا في حكم المفقود، وقد تم العثور على مقتطفات طويلة منه في كتاب آخر بعنوان [جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق] لمؤلفه علي بن عبد العظيم الأنصاري (ت بعد 669هـ/1270م).

يخاطب التميمي ولده علي في المقدمة، شارحاً الأسباب التي دعته إلى تأليف هذا الكتاب، قائلاً:

[يا بنيّ فإني وجدت حكماء اليونانيين ومن بعدهم من أفاضل الأطباء المحدثين على عصرنا هذا، مجمعين على فضل الترياق الأكبر، ومقدّمين له في سائر كتبهم وجميع أدويتهم ومعاجينهم ومطنبين في فضائله، وحقّ لما كان منقذ النفوس من العطب وشافياً لها من عظيم الوصب، أن يقرّظ بكل لسان، ويقرّظ وصفه بكل مكان، ويدّخره كل إنسان لموضع فاقته إليه، وفقره إلى نفعه عند شرب السموم المتلفة ونهش الحيوانات المهلكة، ولما كانت الملوك العظماء، وسائر الكبراء والمراتب العالية والأفراد السامية من أكثر الناس منافساً وحاسداً وأعداؤهم من ألطف الأعداء حيلاً ومكائدا، كانوا إلى ادخاره دون غيره أحوج، وباقتنائه أشّد كلفاً والهج][26].

مشاهدات نباتية مقدسية:

بحكم نشأته المقدسية جال التميمي في الجبال المحيطة بالقدس وسهولها وقُراها برفقة شيوخه وأساتذته من النباتيين والشجّارين والحشائشيين، وكان يطلق عليهم (المُباحثين)، وتعرّف عن كثب على النباتات والأشجار والأعشاب الطبية التي تزخر بها تلك المناطق الزراعية الغنية، وسجل لنا مجموعة من المشاهدات حول التواجد الجغرافي لبعض هذه النباتات.

فيذكر عن نبات (القملية) أو (بزر الجزر البري) بأنه كثيراً ما كان يخرج لجمعه من ضيعة بقرب بيت المقدس تعرف (بالقدارة العليا)، فيلتقطه من كرومها، أما (بلوط الأرض) فيلاحظ بأن منابته بجبال بيت المقدس كثير، و(الشبث البري) يُقتلع من المواضع الجبلية والكروم والتربة الحمراء.

أما نبات (الكتّانية) أو (الحباحب) فينبت بضيعة تبعد فرسخاً عن بيت المقدس تعرف (بعين كارم)، وبها كنيسة تعظّمها النصارى.

وكذلك (الأنجدان الرومي) أو (الكاشم) فهو ينبت بجبال بيت المقدس وتختصّ به ضيعة من ضياع القدس تعرف (ببيت عطور).

المنهج العلمي:

تمتع التميمي بشخصية علمية مستقلة بدون محاباة، ففي كتابه (المرشد إلى جواهر الأغذية وقوى المفردات من الأدوية) ينتقد الطبيب اليوناني جالينوس بتأدّب وموضوعية، ويعلّل نقده بقوله:

[أقول هذا لا لأني أكثر علماً منه، أو أحكم رأياً وأقوى بصيرة، لكن لسكناي بالبيت المقدس ومجاورتي لبحيرة لوط ومعرفتي بكثير ممّن كانت بهم علل طويلة مزمنة اعتادوا الخروج إليها في شهر (آب / أغسطس)... للاستحمام بمائها والاحتقان به، وشرب من استطاع شرب اليسير منه فعوفوا وسلموا وبروا من عللهم][27].

ثم يشير إلى أنها سمّيت بالبحيرة الميّتة لأنه لا يعيش فيها شيء من الحيوان المتوالد في مياه البحار كالأسماك والسراطين والدلافين والسلاحف حتى (السمك الآتي إليها يموت أيضاً)[28].

ونلاحظ بأن التميمي يبني آرائه العلمية بناء على خبرته بالأمراض المستوطنة في مسقط رأسه القدس وأنحاء فلسطين، وتجاربه الناجحة في علاجها، ومعرفته الجيدة بجغرافية فلسطين الطبيعية، ويقدم معلومات جغرافية وتاريخية مهمّة عن نهر الأردن فيقول:

[أنه نهر جواد عظيم الشأن يصّب في البحيرة الميتّة دائماً من أول الدهر إلى وقتنا هذا... وقد كنا ونحن بالبيت المقدس إذا ارتقينا لظهر الطور (شرقي المدينة بعد أن نرقى إليه من كنيسة الجسمانية) ننظر إلى ماء البحيرة الميتة وبيننا وبينه أربعة فراسخ فنراه ليس على ما وصفه جالينوس بقوله إن ماءها أبيض من ماء البحار بل نراه أشدّ زرقة من ماء البحر الغربي (الأبيض المتوسط)... وكنا نرى من على ظهر الطور ماء نهر الأردن وهو ينصّب فيها ويشقّها من شاطئها الشرقي إلى قريب من وسطها طافياً على مائها لا يخالطه لخفّته عنه، وهو أبيض يضرب إلى الخضرة الريحانية][29].

وأضاف التميمي ما كان يسمعه من سكان المنطقة أن ماء هذه البحيرة ينقص تدريجياً على مرّ السنين، ويحكون عن آبائهم وأجدادهم أن المسافة كانت بين الماء وبين (زغر) في غابر الأزمان اقل ما هي عليه الآن، ثم أوضح كيف أن أهل المنطقة يحصلون على الكبريت المستخرج من منطقة البحيرة، ويبيعونه في نواحي فلسطين، وأن روائح الكبريت مع روائح النفط في الصيف تؤذي من حولها.

ومن مائها أيضاً كانوا يجمعون الملح المستعمل للطبيخ والعجين والأدام في بيت المقدس وفي فلسطين عامّة وقد يتّخذ من مائها ملح عذب للطعام، وملح مر يستعمل في الصناعة[30].

يوسف النصراني:

في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، يرد خبر طبيب قبطي ورد القدس هو يوسف النصراني، وعرّفنا به (ابن أبي أصيبعة) نقلاً عن كتاب (تاريخ الذيل) لمؤرخ قبطي هو يحيى بن سعيد بن يحيى.

وروى عنه بأنه: [كان طبيباً عارفاً بصناعة الطب، فاضلاً في العلوم][31]، وفي عام (370هـ / 981م) صار بطريرك بيت المقدس، وذلك في عهد ثاني الخلفاء الفاطميين لمصر العزيز بالله، أبو منصور نزار، وأقام في الرئاسة مدة ثلاث سنين وثمانية أشهر، عاد بعدها إلى القاهرة وتوفي فيها ودفن في كنيسة مار ثوادرس[32].

ويخبرنا الباحث سامي حمارنة بانه مرّ بفلسطين بحكم موقعها الجغرافي أطباء آخرون، منهم: الكحّال (طبيب العيون) عمار بن علي الموصلي مؤلف كتاب (المنتخب في علم العين ومداواتها بالأدوية والحديد)، الذي ألّفه بعد حضوره من العراق إلى العاصمة الفاطمية زمن الخليفة الحاكم بأمر الله (386هـ / 996م) (411هـ / 1020م)، ومعاصره عالم البصريات والرياضيات والعلوم الحكمية أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم، وفي القرن اللاحق مرّ بها أيضاً قادماً من عاصمة العباسيين الطبيب النطاسي أبو نصر عدنان بن العين زربي المتوفي بالقاهرة عام (548هـ / 1153م) [33].

هوامش الفصل الثالث

(1) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 546 – 548.

(2) ذات المصدر – ص 566.

(3) ذات المصدر – ص 694.

(4) التميمي: محمد بن أحمد – مادة البقاء – ص 595.

(5) القفطي: علي بن يوسف – أخبار العلماء – ص 116.

(6) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 547.

(7) التميمي: محمد بن أحمد – مادة البقاء – ص 5165.

(8) ذات المصدر – ص 201 . 202.

(9) ذات المصدر – ص 509.

(10) النويري – نهاية الأرب – 20/12.

(11) ذات المصدر – 21/12.

(12) ذات المصدر – 65/12.

(13) ذات المصدر – 20/12.

(14) ذات المصدر – 44/12.

(15) ذات المصدر – 23/12.

(16) ذات المصدر – 9/12.

(17) ذات المصدر – 37/12.

(18) العسلي: كامل جميل . مقدمة في تاريخ الطب – ص 55.

(19) حمارنة: سامي – الطب العربي في فلسطين – المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام وفلسطين – ص5.

(20) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – ص 55.

(21) قطاية: سلمان – مخطوطات الطب والصيدلة – ص 321 – 329.

(22) التميمي: محمد بن أحمد – مادة البقاء – ص 35.

(23) ذات المصدر – ص 71 – 72.

(24) الذاكري: محمد فؤاد – موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين – 654/4.

(25) ذات المرجع.

(26) الأنصاري: علي بن عبد العظيم – جامع الاتفاق والافتراق لصناعة الترياق (مخطوط).

(27) حمارنة: سامي – الطب العربي في فلسطين – ص7.

(28) ذات المصدر.

(29) ذات المصدر.

(30) ذات المصدر – ص 7 – 8.

(31) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 545.

(32) ذات المصدر.

(33) حمارنة: سامي – الطب العربي في فلسطين – ص9.

الفصل الرابع

مؤلفات التميمي

مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرَر الأوباء

مخطوط المكتبة المارونية – حلب رقم (561)، ويتألف من /189/ ورقة مكتوب بمداد أسود، بخط نسخي مقروء مُنقّط العناوين بالأحمر، قياس الصفحة (31،5 × 20،5سم) عدد الأسطر في الصفحة /19/ سطراً المخطوط مكتوب على وَرَق أصفر سميك نسبياً، ومجلّد بجلّدٍ سميك مزخرف.

الناسخ: السيد محمد بن السيد محمد خادم الخِطابة بالجامع الكبير بطرابلس الفيحاء، وقد كتبه برسم السيد علي أفندي النقيب على أشراف طرابلس الشام.

أما سنة نسخ هذه النسخة المخطوطة فيذكر الناسخ في الورقة (188 ظ) ما يلي:

[يقول كاتبُه: قد فرغت من كتابته ضَحوة اليوم الثامن من العشر الثالث من الشهر السادس من العام الثاني من العقد الرابع من القرن الثاني عشر من هجرة سيّد البشر صلّى الله عليه وسلم]، فيكون التاريخ الكلّي لكتابة نسخة المخطوط هو / 28 / من جمادي الآخرة عام /1132هـ/، ويُعادل يوم الثلاثاء /7/ أيار /1720م.

مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرَر الأوباء

يُصنَّف كأول كتابٍ اختصاصي في تاريخ الهندسةِ البيئيةِ في الحضارة العربية الإسلامية، وأقدم مَخطوط عربي من نوعِهِ يَصلّ إليها ليناقش مشكلة تَلّوث الهواء وأسبابها، والأمراض الناجمة عنها، ووسائل تنقيةِ الهواء من أجل تجنُّب الإصابة بالأمراض، ثم سُبُل الوقاية منها، والأدوية التي يجب استعمالها في حالِ حُدوثِها.

أراده مؤلفهُ أن يكونَ مرجِعاً تاريخياً علمياً للمواضيع الطبّية المتنوّعة، فيسوق أولاً آراء كبارِ حُكماءِ اليونان في الموضوع، ثم آراءَ العلّماء البارزين في الحضارة العربية الإسلامية، ثم رأيه النقدي التحليلي في الموضوع بحسبِ معرفتهِ وتجربتهِ. مُستَشهداً ببعض من سَبَقُوهُ وعاصروهُ، ناقِلاً عَنهم. يَبتدئ التميمي مُقدمة كتابه بحمدِ الله وشكرِه، ويُهديهِ إلى الوزير يعقوب بن كِلِّس، وكان وزيراً أيام الخليفة الفاطمي المعزِّ ثم العزيز، عاش بين (318هـ/930م – 380هـ/990م) ويصفه بأنه (تاجُ هذه المملكة العظيمة، وعميد هذه الدولة الحسيمة والذّاب عن حرم الدينِ وعَينُ أمير المؤمنين، ومُدَّبر أموره وفاتح أبوابِ سُرورِهِ][1].

يَبسُط التميمي يَدَ الطاعة للوزير يعقوب بن كِلِّس، فيقول: [ولما كانت أنعمُهُ إليّ شاملة، وأياديهِ إليّ واصلة، من تشريفه إياّي بخدمته، ونَظَره إلي بعين رِعايَتهِ، واصطناعهِ إياّي دونَ ذوي الحرمة به، فكنت غَرَسَ يده العالية، وغذِي نعمِته النامية، والمتفيئ بظلِّ دولَته...][2].

وستكون دراسة المخطوط بحسب تسلسل الفصول.

من سمات التميمي التواضع العلمي فهو عندما يُقارِنُ نفسه بشيوخ الطب المقدَّمين عند الوزير في زمنه، يقول: [على أني لَست بأعقَلِ مِنهم، بما أذكرهُ، ولا بأهدى إلى صواب التدبير بما أرسُمهُ في هذا الكتاب من أصغَر أصاغِرهم، وإن كان لا صغير فيهم..][3].

ويُقرّر قاعدةً وحقيقةً سائِدةً تفوتُ الكثيرينَ، مضمونها أن العالم النبيه لن يَستغني أبداً عن معرفة آراء من هُم أدنى منهُ معرفةً. فيقول: [غيرَ أني رأيتُ الفاضلَ النبيه غير مُستغنٍ عن رأي المفضول في بعضِ حوادِث الأمور][4].

ومن الأسبابِ الموجبة التي دفعت التميمي لتأليف الكتاب، هي: اقتصار أعلام الأطباء القاطنين في الأمصارِ المشهورة بالأوبئة على العناية بعلاج الأمراضِ الناجمة عن فسادِ الهواء والمياه، دونَ الاهتمام باستطلاعِ أسبابِ ذلكَ الفساد والمؤدّية لوقوعِ الأمراض والأوبئة.

ويصلُ إلى نتيجةٍ مؤدّاها بأنَ مهمّة الطبيب الماهر هيَ في التدابير الوقائية المتخّذة لإصلاحِ فسادِ الهواء والمياهِ الغليظة الآمنة، ووصفِ المعاجيّنِ (الأدوية المركّبة) لدفع ضرر ذلك التلوث مثل الترياق وغيرهُ.

تلوث المياه ومعالجتها:

يذكرُ التميمي بأن الماء والهواء يتبادلان التأثير في التلوّث، فيقول:

[إن الجوَّ إذا فَسَدَ بنوعٍ من أنواعِ الفسادِ الداخلةِ عليهِ، مثلَ أبخرةِ المياهِ الغليظةِ المتصاعدّة إليه، وباختلاف حالاتهِ وتغييرِ أمزجتهِ في فصولِ السنة، مثلَ كثرة الأمطارِ أو قِلّتها مع دوام هبوب الجنايبِ فيها، فلا محالة أن يَفسُدُ لأجلِ ذلك أيضاً الماءُ المجاورُ لتلك الأهويةِ الفاسِدّةِ الذي يشربهُ أهلُ تلكَ البلدانِ وسكانها، لقبولهِ ما يُحدثهُ فيهِ الهواء من الحرّ أو البرد أو العَفَن أو الغلظ، إذ الماء والهواء عنصرانِ مُتجاورانِ يَستميل أحدهما إلى الآخر، ويَدخلُ أحدهما في أجزاءِ الآخر فيشابِكهُ ويُمازجُهُ][5].

وينقل عن أبقراط وَصَفهُ للماءِ الفاسدِ الذي يحتوي مواد مُنحلَّه غَيَرَّت من صِفاتهِ الفيزيائية، فيقول: [يكونُ مَنظره غَليظاً وبخاصّة في فصلِ الشتاءِ، ويكونُ في كيفيّته في الصيفِ حارّاً، وفي الشتاء بارداً][6].

كما ينقلُ عن كتاب (الأهوية والمياه والبلدان) لأبقراط أنواع الأمراض الحادثة في الجسم الإنساني لمن يَتناول هذا النوع من الماء، فيذكرُ: [أنهُ يَعُرضُ لمن أدمن شُربَ هذا النوع من المياه اختلاف الدم والذرَّب وحميّات الربع وجمع الماء في البطن وعِلّل الرئة وداءِ الصَرَع والحميّات المحرقة والتهيّج والبلغم الأبيض وعُسرُ الولادة والعَفَن ومرض السلّ وإبطاء النقاء من الدم، والدوالي والقروحُ في الساقين، وجمعُ الماءِ في الأرحام، والأوردة][7].

صَنَّفَ العلماءً العرب القدامى أنواع المياه الفاضلة والمحمودّة إلى:

1- مِياهُ العيون.
2- مِياهُ الأنهار.
3- مِياهُ الأمطار.
4- مِياهُ الآبار والقِنى.
5- مِياهُ النزّ.

6- المياهُ الجليدية والثلجية.

أما المياه الرديئة فهي:

1- المياهُ العَلَقية.

2- الجُمد والثلج إذا كانَ غير نقيّ.

3- الماءُ المالح.

4- المياهُ الغليظة الكَدِرة.

5- الماءُ المرّ.

6- المياهُ التي يُخالِطُها جوهَرٌ مَعدَني.

7- المياهُ الكبريتية.

8- المياهُ الجيّدة المختلطة بمياهٍ رَديئة.

9- المياهُ الطينيّة.

كما قدّم الأطباء العرب وسائلَ وطرق عِدَّة لتنقيةِ المياهِ وتعقيمها، وجَعلِها مُستساغة صالحةً للشرب، أثبَت العلم الحديث جدواها وفاعليتها، واعتمدوا أساليب سَهلة مُبتكرة وواقعية للتخلّص من ضَرَرَ المياهِ الرديئة، ومواجهة جميعِ الحالات الصعبة التي قد تُصادِفُ الإنسان، وبالأخصّ في حالِ قِلَّة المياهِ وشِحتَها وعَدَمِ وجودِ بديلٍ يَتمثّل في مصادر مياهٍ عذبةٍ نظيفةٍ صالحةٍ للشربِ، فذكروا عِدَّة حُلولٍ ونصائحٍ بهذا الصدّد، منها:

1- كَثرَة الترويقِ (الترسيب).

2- كَثرَة الاسترشاح.

3- طَبخُ الماء (غَليه).

4- تصفيةُ الماءِ بفتيلةٍ من الصوف.

5- غَليُ الماءِ مع طينٍ حُرٍّ وصوف.

6- مخضُ الماء (خَلطُهُ بطينٍ حُرّ).

7- إضافةُ المشروباتِ الغوّلية.

8- تناولهُ مع الخلّ (في حال قِلّتِه).

9- مزج الماء المالح بالخلّ.

10- تناولُ المليّنات مع الماء العفصي (القُلَوي).

11- مزجُ الجُلاّب (الشراب الحلو) مع الماءِ المرّ.

12- تناول الثوم مع المياه الغليظة.

13- مزجُ عصيرِ البصلِ مع الماءِ لدفعِ ضرَرِها.

وبالنسبة للمسافرين الذين يقطعون الفيافي والقِفار لمسافات طويلة، فالتدابيرُ الوقائية ضرورية جداً قبلَ تناولهم أي جُرعة من ماءٍ لا يُعرَف مَدى نقائه وصلاحيّته للشرب فلا بأسَ من تطبيقِ الوصايا التالية:

أولاً: أن يَحملُ المسافرُ مَعَهُ قَدراً من ماءِ بَلَدِهِ.

ثانياً: أن يَصحَبَ معهُ من طينِ بَلَدِهِ.

ثالثاً: عَدَم تناولِ الماءِ أثناء الطريق إلا بعدَ ترشيحه.

رابعاً: استحصابُ الربوب الحامضة (عُصارةُ الفواكه المطبوخة) مثل: ماءِ الرمّان، ماءِ الحُصرُم « العنب الفجّ »، ماء الليمون، ماء السفرجل... ومزجِها معَ الماءِ قبلَ تناولهُ.

يُقرّر الطبيبُ اللامع هبة الله بن جميع (ت 594هـ/ 1198م)، قاعدة أساسية للأطباء في كل زمن، تتعلّق بمدى الكفاءة والنجاح في التصدّي لعلاجِ الأمراضِ المستوطنة، ولا يتحقّقُ ذلكَ إلا بمعرفة طبيعة البلد وحالِ هوائه ومائه، وتطبيقِ الطرق والوسائل المفيدة لمواجهةِ ما يَطرأُ من تغيير أو فسادٍ للهواءِ والماءِ فيقول:

[إن الطبيب لا يُمكنُهُ أن يُعالِج أحداً من أهل بَلَدٍ من البلاد كان علاجاً صَواباً دونَ أن يكونَ عارِفاً بطبيعةِ ذلك البلد، وحالِ هوائه، ومائه، وتَدبير أهله، ونحَو ذلك من أحوالهِ وما يوجبهُ وتقتضيه من الأمراض وقوانين المعالجات، اللهّم إلا أن يكونَ مِمَّن يَقنعُ من الطب بالتسميةِ دونَ المعنى، وبالتشبيهِ دونَ الحقيقة][8].

تنقية المياه:

يَشرحُ التميمي عِدة أساليبَ لتنقيةِ المياهِ، بحسبِ نوعِ الفسادِ الذي أصابها والظروف المحيطة، فيقول:

[وليسَ إصلاحُ الماءِ الفاسدِ ممكناً بغيرِ طبخهِ بالنارِ، إذ النار بِحرّها تُحلِّلُ ما فيه من الغُلْظِ وتُزيل عنه ما مازَجهُ من فسادِ الهواءِ المشابكِ لهُ بما يتصاعَدُ بِحرِّها من بخارهِ المصفّي لجوهَرِهِ المميط عنه الغُلْظ المُميِّز عنه الكَدْر، أو يَمزجُه عنه عند شُربه بالشرابِ العتيق الريحاني، وذلك عندَ تَعذّر إصلاحهِ بالطبخ لمن كانَ مُسافِراً على طريقٍ، أو مُجتازاً ببعضِ المواضع الفاسدةِ المياه][9].

فالسبيل لعلاجِ الماءِ الفاسدِ هو طبخهُ أي شِدَّة غليهِ، وإن لم يَتَيسّر ذلك كأن يكونَ المرءُ على درب السفر فينبغي مَزجُهُ بالشراب العتيقِ الريحاني، كيّ تَتمّ عملية التعقيم.

ويُفصِّل طريقة طبخ (غليّ) الماء، فيقول:

[وسبيلهُ أن يُديم طَبخَهُ إلى أن يَذهب منه الربع، ثم يُبَرَّد في آنيةٍ من جديدِ الخزفِ المتخلَّل الكثير الرشح إذا كانَ الوقتُ قيظاً، أو في آنيةٍ من الزجاج إن كانَ الوقتُ شتاءً... وينبغي أن نَعلمَ أن أفضلَ هذا الماءِ المطبوخ المبرَّد وألطفهُ وأنفعَهُ رَشحَهُ، وهو ما رَشحَ منه في آنيةِ الخزف الجديدِ المتخلّل الأجزاء الدائمِ الرشح، فليعتمد شُربَ ذلك][10].

يؤكد التميمي على شِدَّة الغليان بحيث يَتَبَّخر ربع الماء، ثم يُرَشَّح في آنيةٍ الخَزفِ، والرُشاحةُ هي أفضلُ ما يُشرب من هذا الماء. وأما الماءُ الكَدر الذي يحتوي أجساماً طافيَة، فيقول:

[فأما تصفيةُ الماءِ الكَدر، فإنه قد يُحتال لتصفيةِ الماءِ الطيّب الخفيف إذا كان كَدراً في أوقاتِ المدودِ لأجل أنواعِ التُرَب التي يَمرُّ ويجري عليها بوجوهٍ من العلاج، فمنه ما يُصفّى بأن يُلقى فيه اليَسير من الشَبِّ الأبيض اليَماني، أو بأن يُلقى فيه لُبِّ شيء نُوى المشمش، أو قُلوب اللوز المرَمَّد فوقَه، أو اليسير من ملح الطعام

مَدقوقاً، أو يُلقى فيه شيءٌ من خَشَب الساج، فأنه إذا ألقي الماءِ الحلوِ الكَدر أحدُ هذه الأشياء وحُرِّك به تَحريكاً جيداً ثم تُرِكَ ساعةً زمانيةً فأنهُ يُصفّيهُ ويُرَوقه، ويُميّز العنصر الأرضي منه بسرعة][11].

عرف التميمي الفرقَ بين المياه الغليظة والكَدرة ومَيَّز بينهما، فالمياه الغليظة، حسب قوله يكونُ منظرها غليظاً وتكون حارّة في الصيف، باردة في الشتاء بسبب احتوائها على موادَ مُنحَّلة تزيدُ من كثافتها، فيؤدّي ذلك إلى اختلافٍ في دَرجتي غَليانها وتجمدّها عن المياه العادّية.

أما المياهُ الكَدرة فيمكن أن تكونَ طيّبة خفيفة ولكنَّها تحتوي جُسيمات، أو موادَ طافيةٍ فقط، وليسَ بالضرورةِ أن تكونَ غَليظة، وهو ما يُثبتُ العلم الحديث صَحّته.

وبالنسبةِ لتنقيةِ الماء الكدر، فالموادُ المستخدمَة التي ذَكَرها التميمي مثل: خشبِ الساج وملحِ الطعام وقلوب اللوزّ المُرَمَّد، فهي موادٌ تساعدُ على تشكيل النَدف، بحيثُ تتجمَّعُ مع المواد المعلَّقة التي لا تستطيع أن تَتَرسَّب بوزنها الذاتّي بِسبب حَجمها ووزنها الضعيف – فَتُشكّل نُدفاً ذات حجمٍ ووزنٍ أكبرَ مما يُؤدّي إلى تَرسيبها بكفاءَةٍ أكبرَ [12].

وتُعتبر آراءُ التميمي في هذا المجال سَبْقاً حَضارياً، فقد أثبتَت التجارِبُ العلمية الحديثة صِحّة ما ذكرَه.

الأدوية الهندية المنشأ، الفرق بين الطب الهندي القديم والطب اليوناني القديم:

ضمن منهجية كتابهِ في حفظِ الصحّة الوقائية، أختار التميمي موضوعاً طبّياً جديداً يُضافُ إلى المكتبةِ الطبية العربية، يَندرجُ ضِمن عُنوانٍ عريضٍ جذاب هو مَنعُ الهَرَم وإعادَة الشبابِ المنصرِم وإدامَة الصحّة ونَفيُ السَقَم.

لاحظَ التميمي بِحنكتهِ مَدى اختلاف المنهج الطبّي لحكماءِ الهند عن المنهج الطبي اليوناني القديم والذي يُمثّلهُ أبقراط وجالينوس، وذلكَ على صَعيدِ التراكيب الدوائية، والمواضيع الطبّية المطروقة، فيقول: [إن لحكماءِ الهند أدويةً عجيبة يَزعمون أنها تَرُدُّ الشبابَ على من قَد طَعن في السنّ، وغَلَب عليه ضِعف الشيخوخة... وذلكَ أن لهم طريقة في الطبِ وعِلاج الأجسادِ من الأمراضِ غير طريقةِ حُكماء اليونانيين، وموضوعات غيرَ مَوضوعاتهم، عَجيبة، ذَكَر طَرْفاً منها علي بن ربن الطبري في كتابه الموسوم بفردوس الحِكمة، ووَجدت يَعقوب بن إسحاق الكِندي قد ذَكَرَ في أقرباذينه أسماءَ بعض أدويتهم هذه، ولم يَذكُر أخلاطها ولا كيفيّة تراكيبها، ولم يَطلعٌ على ذلك ذو علم، فأنعمتُ البحثَ عنها إلى أن سَقَط إليّ نَعْتُ أخلاطِ بعضها، وكيفيّة تركيبها، فرأيتُ إثباتَ ما سَقَط عِلمُهُ إليّ من ذلك][13].

فالتميمي وقد راقَهُ البحثُ في هذا الموضوع، يُقِّرُ بوجودِ صُعوباتٍ منها قِلَّةُ المصادرِ العربية التي تَطَرَّقت للأدوية الهنديّة المنشأ، والمتمثّلةُ في الكتابِ الطبي الشهير (فردوس الحكمة) للطبيب الحكيم علي بن ربن الطبري (ت 247هـ/861م) الذي وُلِدَ ونشأَ بطبرستان، وعايش الخليفة العباسي المعتصم وغدا من ندماءِ الخليفة المتوّكل، والمصدرُ الثاني هو أقرباذين (دستور الأدوية) العالم الشهير يعقوب بن إسحاق الكندي، أما المصدر الثالث فهو (جامِعُ الطب) ليوحنّا بن ماسويه (ت 243 هـ/ م) طبيبُ المأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل، وقدّم فيه ما اجتمع عليه أطباءُ فارس والروم بالإضافةِ إلى بعضِ الوصفات الهندية المنشأ.

وقد واجَهَهُ أيضاً إشكالية عِلمية مصطلحة تَتَعلَّقُ بمعرفةِ المصطلحات الهندّية العلمية النباتية وغيرها، وما يُقابِلها باللغة العربية، فمشروعُ الترجمة العلمية في الحضارة العربية الإسلامية رَكَّز بشكلٍ مُطلق على المصادرِ اليونانية القديمة فقط، ولم يَتَجاوزها إلى المصادرِ العلمية الهندّية أو الفارسية إلا بشكل ضَئيل، مما لا يَسمَح بتكوينِ إلمامٍ كافٍ بالمصطلح العلمي الهندي، ويُبسط التميمي عُذرَهُ عِند وجودِ خَلَلٍ أو تصحيفٍ في أسماءِ الأدويةِ التي يوردها، والسبب أَنهُ يَنسخها كما وَرَدت في الكتب دون معرفة جليّة وثيقة، وإن كان غَرضُهُ الأساسي هو ابتغاء المنفعة العامة لجنس الإنساني، فيقول:

[وسبيلُ الناظرِ فيما آتي بِذكرهِ من هذه الأدوية فِمَّن هو عارفٌ بأسماءِ عَقاقيرها، متى كشف المُتصفّح فيما آتي به من ذلك عن تصحيفٍ أو خَلَل، أن يَتجاوزَ عن ذلك ويوسع لي القدرَ فيهِ، إذا جُلُّ أدويتهم الداخلة في مُرَكبّاتِهم هذه مُسَمَّاة بأسماءٍ هِندّية لم أسمَع بها قَطّ، ولا سَقطَت إليّ تلقيناً عن ثِقَة عارفٍ بها، وأنما نَقَلتُها من الكتب، فمثّلها بالأمثلة التي وجدتها بها، وصَوَّرتها بِتلك الأشكال، ولستُ بمعصومٍ في نقل ما لم أعرف حقيقته، ولم أرَهُ قطّ، ولا سَمعتُ بإسمه مِن دخولِ التصحيفِ عَليَّ في ذلك، وأرجو أن يَعصمَ اللهُ من ذلك بتوفيقه، إذ قد عَلم تعالى جَدُّه أن غَرَضي في إثباتِ ذلك في كتابي وشرحِه ابتغاء منافعَ أبناءَ جنسي من خليقتهِ وقَصدِ عوافيهم وإيثارِ سلامةِ أجسادِهم ونُفوسِهم، وهو حَسبي ونِعْمَ الوكيل][14].

يُسجَّل التميمي اعتراضهُ على المبدأ القائل (رَدُّ الشباب الضائع)، فيقول:

[ونحن نَعلمُ أن من الممتنع في العقول رَدُّ الشبابِ الذاهب على ذي الهرَم الفاني بمركَّبٍ من مُرَكبّات الأدوية، وأنه متى أمكن ذلك بأخذِ شيءٍ من المُركِبّات التي ذكروها، فإنه غير ممتنعٍ في العقولِ أن يُستدفع بذلك المُركَّب ضَرَر فسادِ الهواء وإحداثُ الأمراض على النفوس، وذلك أنهُ متى أمكَن في مُركَّب من مُرَكبَّات الأدوية أن يُرَّد على الهرِمِ شبابهُ فأحرى بهِ أن يَّدفع عَنهُ خمس آفات من الأمراض وحوادث فسادِ الهواءِ][15].

فالتميمي يُقرّر بأن المركبَّات الدوائية المتعلّقة بهذا المجال غير معقولة، لأنها لو صَحَّت منطقياً، فهذا يعني أنها يمكن أن تُسَجِّل انتصاراتٍ مُذهلةٍ على فساد الهواء وما يعقبهُ من أوبئةٍ وأمراضٍ، وهو ما لم يحصل قَطعاً في زمنهِ.

والأمرُ الآخر الذي جَعلهُ يَلتزم موقف المتَحفِّظ، أن هذهِ الأدوية لم تخضعَ حسبَ مقاييسه العلّمية لطور التجربة، ويُسمِّيها (المحنة) لقياس مَدى فعاليتها ونجاعتها من عَدَمهُ، ويُكشفُ بذلك عن منهجهِ العلمي القائم على الشكّ والتجربة، وهو منهجٌ التزمهُ أعلامُ أطباءِ الحضارة الإسلامية، فيقول:

[وليسَ توقفيّ فيما ذَكرَتهُ الهندُ عن مُركبّاتها هذه من ردِّ الشبيبةِ على ذي الهرَم منهم إلى أن يَصُّحَ لي ذلك من طريق المحنة][16].

ويُعتبر بأن الطبيعة وما تحويه من ذخائرَ وخوّاص عبارة عن كتابٍ مفتوح لم تُقرأ بَعدُ كل فُصولهِ، فالفتوحاتُ العلمية والاكتشافاتُ لم تتوقف أو تنتهي بَعد، وُدَلّل بذلك على عَقليتهِ العلمية المنفتحة، والتي لا تَضَع حُدوداً أمامَ إمكانيات العقل البشري، فيقول:

[ونحنُ نعلم أن في أسرار الطبيعة من العلومِ الخفيّة وخواص الأدوية والجواهر ومُركبّات المعاجين – مما لم يذكره لنا عالمٌ من العلماء في كتابهِ و لا نقَلهُ إلينا ناقِلٌ – ما يَفعل مثلَ ذلك من الأفعال المنافية للعقل، ونَستّدل

بما شاهدناهُ من مثل ذلك على ما غابَ عنا عِلمَهُ، ولم نشاهِدُه حِسّاً، وذلك أنا لو لم نُشاهد فعلَ حَجَرَ المغناطيس في اجتذابه للحديد وتَعلّقه بهِ عَياناً، وابتلاع النعام حَجَر النار والحديد المُحمَّى الذي قد صارَ في كيان النارِ الموقدّة، ثم حكى لنا ذلك حاكٍ، لأوجبَ العقل دفعُه والتكذيبُ بهِ، فلما شاهدناه حِسّاً ورأيناهُ عَياناً لَزِمنا قُبولَه والتصديقُ به، والتوّقف عن التكذيبِ بما يَرِدُ على أسماعنا من أمثاله][17].

الطب الهندي القديم:

المرضُ خروجٌ عن التناغُم في جسم الإنسان، أي اضطرابُ التوازنِ في العمليات والتبدلاّت التي تجري ضمن الجسد.

امتاز الطب الهندي القديم في بعضِ جوانبهِ بأنهُ طِبٌ روحي ديني، فقد نَشأت تأملاّت حكماءِ الهند من محاولاتهم تحسين الحياة، وارتكزَ الطبُ الهندي على مَبدأ الوقاية أولاً قبل وقوعِ المرض، فقد واجَه الفلاسفة الهنود العذابَ الجسَدي، والذهني، والروحي، وسعوا لفهم مُبَرّراته وأسبابهِ، وحاوَلوا تحسين فَهمهم لطبيعة الإنسانِ والكون، كما أرادوا استئصالَ أسباب المعاناة وتحقيقَ أفضلِ حياةٍ ممكنة، وتُشكّل الحلول التي توصلّوا إليها، ومُبرّرات النتائج الكامنة وراء هذه الحلول فَلسفات هؤلاءِ الحكُماء الأوائل، وتَجلّى ذلك على الصعيد الطبّي بالمركبّات الدوائية التي صَنَعّوها، ومنها الدواءُ المسمَّى (دواء الملوك) الذي وصَفَهُ يعقوب بن إسحاق الكندي، بقوله:

[هذا نَعتُ دواءِ فلاسفة الهند، وهو المسمَّى دواءُ الملوك، الذين كانوا في الزمن الخالي يتخذونه ويتداوون به، وهو يُدعى سيد الأدوية، ويُسمَّى دَواء السنة، وذلكَ بأنهم كانوا يتخذونه فيستعملون منه سَنة كاملة في كل يوم لا يتركون أخذَهُ يوماً واحداً، ومِقدار ما يأخذونَ منه في كلِ يومٍ مثلُ الجوزة، وإن من دام على شُربه لم يبقَ في جسدَه داءٌ إلا بَرِيء بإذن الله، وزعموا أن آخذه يَشيبُ ولا يَسقطُ له شعرٌ إلا ما تقدَّم من شمطِه قبلَ أخذه إيّاه، وأنه ينفع من الناسور والباسور والسُلال والصُفرة والأبردة وضَرَبان المفاصل ويجلو البصرَ ويُحسِّنُ اللون ويُقوّي شهوة الباهِ، ويفرزُ النطفة، وليست له غائلة ولا يجب أن يُحتمَّى لأخذهِ][18].

في حين يَميلُ الطب الهندي القديم إلى تناولِ المعاجين الدوائية وغيرها للوقايةِ من حدوثِ الأمراضِ، نُلاحظ بأن أبقراط (أبَرزَ مُمثَّل للطبِ اليوناني القديم) يُخالف هذا الاتجاه بنزعته الحِسية والتجريدية العقلانية، فيقول:

[لا تَشرب الدواءَ إلا وأنت مُحتاجُ إليه، فإن شَربتهُ من غيرِ حاجة ولم يجدِ داءً يَعملَ وَجَد صِحَّة يَعملُ فيها فَيحدثُ مَرَضاً][19].

ومن خِلال دراستنا للتراكيب الدوائية الهندية التي أورَدها التميمي في كتابه (مادة البقاء)، نُلاحظ بأنها تتألف من أنواع متعدّدة من العقاقير النباتية والحيوانية والمعدنية، ومُعظمها يَدخلُ العسَل والسمن في تركيبها، كما يَستغرق تحضيرها فترة طويلة، وتَمرُّ بمراحل عديدة، منها / الغسل، التجفيف، الرّض، الطبخ، التصفية، العَصْر، الطحن، النخل...

العلاج بالموسيقى والألحان:

ضمن فصل من أمتعِ فصولِ كتاب (مادة البقاء) يتَطرَّقُ التميمي لموضوعٍ هام طالما شَغَل الأطباء على مرّ الزمن، ألا وهو علاجُ الأمراض بالموسيقى والألحان، فيقول:

[من أعَجبِ ما سمِعنا وأحسنِ ما نُقِلَ إلينا من منافع أصواتِ الملاهي المطربة، وذِكر الأوتارِ المُلذَّة الجارية على حقائق حركات الطباع المقوّية له المعينة على دفعِ ضررِ الأوباءِ المانعةِ من حدوث الإعلالِ، وتأتّي كثيرٌ من الحكماءِ المشهورين بالحكمةِ والفضلِ لدفعِ كثر من العِلَل الوافدة في أوقاتِ السنة وغيرها، وإزالتها عن أجسامِ الأعلاّءِ وعن نفوسِهم بالسماع المطرب وقَرع الأوتار ونغم المزامير][20].

وقد تَعرَّض لهذا الموضوع عَدّد من حُكماءِ اليونان، ومنهم الحكيم والفليسوف ثاون، الذي كان يُقرئي فَلسفة أفلاطون ومُتَعصِّباً لها، فقال في كتابه (على قِوى الأدوية المنَقيّة والمسهلة): [وأنت أن تفكّرت في تأليف اللحون، وتذكرت الخبر الذي يُحدَّثُ عن أوريون – وهي الدلافين البحرية – كيف تُشارك في الكلام الذي يكون فيه مشاركة في الألم، متى سمعت صوت ناي أو مِعزفة فإنها ترقص على شاطئ البحر وتنقلب إلى داخل السفينة، وقد تسمع قولَ أبقراط الشريف الركين: إن القدماءَ كانوا يشفون من الأمراض باستماع اللحون، وأحرى أن تكون هذه الأشياء تفعل هذا الفِعل عن طريق المشاركة في الألم][21].

يشرحُ التميمي أثرَ الموسيقا والأنغام في المساعدة على شفاء المرضى والأعلاّء، وينقل آراء أعلام الحكماء اليونانين القدامى أمثال: أبلون، ثاليس، ترميدس، أرسطاس، فيثاغورث، ويؤكد بأن سماع الموسيقى يُساعد على شفاءِ المريض من آلامه، والتخلّص من الآثار النفسية المرهقة الناجمة عن الإصابة بالأمراض، ويساعِدُ على حُسنِ تَقَبُّل المريض للدواء، وسرعة نفاذهِ داخل الجسم وأعضائهِ الحيوية.

فيقول: [فإن المغنيّن الذين هم الموسيقيون الفائِقو المعرفة بضرب ذواتِ الأوتارِ، وتأليفِ النغَم ومُشاركتها وموافقتها في تأليفها لبعض أعراض النفوسِ ومُضادَّتها لبعضها، قد يصلون بالواجب من الرأي والعقل من أشفية الأسقام، ودفع ضَرر الآلام الواردة على النفوس من الأمراض الوافدة إلى مثل ما ذكره هذا الفيلسوف الحكيم، وحكاهُ عن حكماء الأطباء والفلاسفة المتقدّمين من فِعل النغم المطربة عند السماعِ، وقرَعِ الأوتارِ المُلذَّة الجارية على حقائقِ حركات النفس المُقوّية لها المنبّهة لِقواها، بخاصّ؛ إذ كان ذلك قد يَرد على أنفس الأعلاّء من غيرِ إتعابٍ للطبيعةِ بتنفيذه ولا مُعاناةٍ لها في إيصالهِ إلى مكامنِ الأدواءِ من العروقِ النوابِض والأعضاءِ الرئيسة، فإذا المغنوّن المحسنون على هذا القياسِ هم أطباء النفوس بلذيذ صِناعتهم وتَقَدّمهم في الحذقِ بها على غيرهم، ومُعدِّلو أمزجة الأجساد بما يُشاكِل طبائعها، وما يوافِقها، ويجلبُ إليها نَفْعها من لذيذِ النَغَم لا شكّ في ذلك ولا ارتياب][22].

ويروى عن الخليفة العباسي المأمون قوله بأن الإنسان قد يُصيبه الملّل والسأم والتكلّف من تفاصيل حياته اليومية حتى ولو كان من ذوي اليسار والدِعة، باستثناء سماع الموسيقى وشَمِّ الطيب والغوالي فإن الراحة عليهما مقصورة، والفائدة فيهما مأثورة.

ويُلاحظ التميمي بأن أصواتَ الملاهي والمزامير تُؤثّر حتى في الحيوانات العجماء والطير، وتلكَ حيلةٌ قديمةٌ يَستخدمها الصيادون لجذب فرائِسهم إلى حبائلهم، فيقول:

[فأما ما تُعجبّ له ثاون من فِعل أصحاب الملاهي والمزامير في نفوس الدلافين وطرَبها لذلك ورقصها عند سماعه، فإنّا قد نجدّ كثيراً من الحيوانات والبهائم تُشرك الدلافين في تلك الحال، ونجدّها يتمكّن طيبُ السماعِ من نفوسها وتفعل أصواتُ الملاهي والنغم في قلوبها طرباً شديداً حتى تلهى به عن مطاعِمها ومشاربها، وتُلقي لأجله

أنفسها في المعاطبِ والمهالِكِ من حبائل الصيادين وغيرها، فمن ذلك الإبلِ، وذلكَ أن الحِداء يفعل في أنفسها طرباً شديداً ويُزيد سماعُه في نشاطِها وسيرها، وتراها تُصغي إليه وتَلّتذ سماعه، ونجدها أيضاً يقتطعها طيب سماعِ النغم وقرعِ الأوتار ولذيذُ الغناء، والتذاذها لذلك عن شرب الماءِ عند ورودِها الحياض، وهي حوامِس][23].

الأوهام والأمراض النفسية، وتأثيرها على صحة الجسم:

يبحث التميمي في أحد فصول كتابه أثَر الأحلامِ والكوابيس والأمراض النفسية المنشأ وأسبابها وتأثيرها على صحة الجسم، ويضرب أمثلةً عديدة، منها المرأة التي توهَّمت بابتلاع ثعبان، وأنه يجول في جوفها، فأمرَضها ذلك الوهمُ، وألزمَها الفراش، فاحتال لها أحدُ الأطباء بأن سقاها بعضَ الأدوية المقيئة وعَصَبَ عينيها بعُصابٍ وطلَبَ منها القيء، وألقى ضِمنَهُ ثُعباناً قد حَضَّره سابقاً، فلما عاينته المرأة عوفيت من عِلتِّها.

ويوّضح التميمي أسبابَ وقوعِ الطبيعة الإنسانية فريسةً للأوهامِ والظنون، فيقول:

[وقد يَعرضُ لكثيرٍ من عُقلاءِ الناسِ وأصحّائهم عِلَلٌ كثيرةٌ تولَّدُها في أجسادهم وأجسامِهم عن طريق الرعب واستشعار الخوفِ وفسادِ الظَّن، وذلك مما يستشعر الإنسانُ أنهُ ستناله عِلَةٌ قد رآها بِغيره، أو يقع وَهمُه أنها قد نالَتهُ، فيتمكَّن ذلك الظَّنُ الفاسِدُ في نفسهِ ويَقوى الخوفُ في قلبه فيمرضه ويوقعه في تلك العِلَّة بعينها. وإنّا لنجد بُرهانَ ذلك ظاهِراً في الذي يَرى غيره يَتثاءَب فَيَتَثائبُ هو على المكان بإزائه، وكالذي يَرى العينَ الرمداء فَيَتصوّر لهُ أنهُ سيرمَدُ فيَرْمَدْ لوقته، أو يَرى بإزائه رَجُلاً قد غَلَبتهُ سنة النعاس وهو يَميلُ رأسه فيكادُ أن يسقط، فينالـه بوقتِه مثلُ ذلك][24].

ويضربُ مثلاً ما عَرَض لتاوفيلوس المتطبّب اليوناني، الذي باتَ يَتوهَّم أن في زوايا بيته أُناساً يعزفون بالمعازِف والمزامير، ولا يفترون ليلاً ولا نهاراً، فكان يَصيح بهم ويأمرُ بإخراجهم من بيته[25].

نشاط التميمي في الصناعة الدوائية:

تَطوَّرت صناعة الدواء وتركيبه في بلاد الشام ومنها فلسطين خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وكان للتميمي نَصيبٌ واسعٌ في إنجاحها، فقد دأَب على تَتَبُّع مَصادر الأدوية، والتعرّف على طريقةٍ تركيبها ومواصفاتها.

ومن ذلك أنه حين تَبادَر إلى سمعِه شرابٌ هندي يُعرف بشرابِ الكَدرِ، عَكَفَ يبحث حتى عَثرَ على تركيبه في مقالة للعلاّمةِ الطبيب محمد بن زكريا الرازي، وبدافع من الحرص والتأكيد، طلَب من أحدِ أصدقائه المُطلِّعين وهو سليمان بن داود السندي أن يُكاتِب بعض الثِقات من وجوهِ الهند وشيوخهم في التوجيه إليه بنعتِ تركيب هذا الشراب، وقام بتركيبه بحسب الوصفة التي وصلته.

ويَذكرُ بأنه أَلَفَّ لبعضِ إخوانهِ شراب التفاح الحامض بعدَ طبخهِ مع الورد والزهر بمقادير مُعيّنة، ويسترسل في ذكرِ التفاصيل العملية لتصنيعِ هذا الشراب، والتعديلاّت التي يمكن أن تدخل عليه بحسب نوع العِلّة.

كما يذكر بأنه عَمَد إلى تحضيرِ أنواع مُتعدّدة من الأشربة تزيد على الخمسين نوعاً لمعالجة الأعراض المرَضيّة التي تُصيب الإنسان، منها: شرابُ الرمّان الحامض، وشراب الحُصُرم (العنب الفجّ) المُتّخذ بالنعنع، وهو مانعٌ للغثيانِ والقيء، وشراب التمر الهندي، وهو [مما ركّبتُه وأحكمتُ تأليفه][26].. بالإضافة إلى [شراب التفاح الشامي أَلفتّهُ لبعضِ أخواننا][27].

لا يفوتُ التميمي في مجال الصناعة الدوائية تَقديمَ النصائح والتوجيهات لمُرَكِّب الدواء من عَطّار أو صيدلاني أو طبيب، فيطالبهم بالدِقَّة وعدم التهاون، فيذكر مثلاً عِندَ استقطار العود الهندي [ولا يُستَقصى استقطاره لئلا يَلحقه تَشييط فيفسد روائحه وطعمه][28].

ومن أصنافِ الأشربة التي أحكمَ التميمي تركيبها:

شراب الصَندل والكافور، وهو قاطعٌ للعطش، نافعٌ من شِدَّة الحرارة والكرب، وشرابُ الزعفران المائي، نافعٌ من خَفَقان القلب وأوجاعه، وشراب الوردِ الطري المكرَّر، المطلق للطبيعة، وشراب وَردٍ كافوري، وشراب الورد المعسَّل وغيره.... بالإضافة إلى الأشربة المسهّلة المطلِقة لطبيعة والمستخرجة من بعض أنواع الفاكهة، مثل: الكمثّرى، الزبيب، التمر، العِنّاب. خلال إقامته بفسطاط مصر عَمَد التميمي إلى تأليف أقراصٍ دوائية، منها: أقراصُ العودِ الهندي لأبي العباس الشرابي، وكان يُعاني من توارُدِ الحمّى على جَسدِه المترافقة مع الغثيان وألم المعدة.

وقد شَكَت له جارِية الحسين الرايض نحولها وهُزالها، فألَّف لها أقراصَ الكافور[29].

كما ألّف لإمرأةٍ من الأشرافِ كانت مُصابةً بالذيابيطس (سُكّري الدم)، وتُعاني من الأعراض المرَضية المصاحبة له، وأبرزُها كَثرة العطَش المُفرِط مع كثرة التبوّل وإدراره، فانتفعت به وحَمَدته على حَدٍّ قوله[30]، ويتألف هذا الدواء من أربعين عقاراً مُتَنوّعاً، ولا يمكن تناوله إلا بعدَ مُضي سِتة أشهرٍ على تركيبه.

ونُلاحظ مدى الدّقة الشديدة في تحريرِ أوزانِ العقاقير، الداخِلة في الوصفة الدوائية، والعمليات الصيدلانية المتعدّدة لتحضير هذه العقاقير مما يحتاجُ معهُ إلى مهارةٍ فَنيّة عالية.

تعاونَ التميمي مع بعض أطباءِ عصرهِ في عِلاج بعض الحالات المرضية الصعبة، فَيذكرُ بأنَ احد الخواص ويُدعى أبو الطيب بن أبي نزار قد استشارَه في علاجٍ لنفَثِ الدم، وكان يَنتابه كل فترة، بعد أن أعيا علاجَهُ الطبيبين ابن الجردي وابن البزوري. فعمَدَ التميمي إلى إصلاح الدواءِ الموصوف وتَعديله فوافق المراد وبَرِيَ المريض.

جيب العروس وحبيب النفوس:

حاز التميمي خِبرةً عاليةً في تصنيع وتركيبِ أنواعِ الطيب والبُخورات والغَوالي والنُدود والمستقطرات والأدهان والنُضوحات، وتَفنَّن في تأليفها حتى حازَ شُهرة واسعة عند ذَوي الشأن، وعَمَدَ التميمي المفتون بتركيبِ الطيبِ والغوالي إلى تأليف كتابٍ مُستقل سَمَّاه (جيبُ العروس وريحان النفوس) ذكر فيهِ أشياءً كثيرةً من هذا الفن، وفَصَّل في أنواعِ وأصنافِ: العنبر والعود والصندل والسُنبُل الهندي والقرنفل وغيره... وقد نَشرَ شهاب الدين أحمد النويري مُقتطفات طويلة من (جيب العروس) في موسوعته الشهيرة (نهاية الأرب في فنون الأدب،ج12).

اعتبرَ التميمي بأن الطيبَ وسيلةً من وسائلِ علاجِ الهواءِ الفاسدِ وتَعقيمهُ، وبَرَعَ في تقديم تراكيبَ عديدة للنَدِّ وهو العود الهندي وقد عُجِن بالمسك والعنبر وأصنافِ الطيبِ، وقد رَكَّبَ منهُ بفلسطين لصاحبِ الرملة الحسن بن عبيد الله بن طغج (ت 371هـ / 982م)، كما ذكرَ تراكيبَ عِدَّة للندِّ، منها نوع كانت تَتَخذُهُ شَغَب أم الخليفة جعفر المعتمد بالله العباسي، وتُرسِله لتبخير الكعبة المشرَّفة وصخرةِ بيت المقدِس

كل أسبوع، ويذكرُ التميمي بان جَدَّه الطبيب سعيد التميمي كان يحصل على جزءٍ منه عن طريق رئيسِ الخَدم ببيت المقدِس.

ونوعٌ آخر كان يُصَّنع لبعضِ جواري خُمارويه بن أحمد بن طولون (ت 282هـ/896م)، وآخر كان يُصَنَّعُ للخليفة المستعين بالله العباسيّ.

كما شَرح تَصنيعَ الغوالي (م. غالية)، والأدوات التي تُصلح لعَملها وسَحقِ مُكوِّناتها، وذكرَ بعضَ أنواعها: الساهرية، غالية هشام بن عبد الملك، بالإضافة إلى عملِ النضوحات والمياهِ المستقطرة من القرنفل والعنبر والكافور والزعفران والورد اليابس والمسك.

هوامش الفصل الرابع

(1) التميمي – مادة البقاء – ص 79.

(2) ذات المصدر – ص 80.

(3) ذات المصدر.

(4) ذات المصدر – ص 185.

(5) ذات المصدر – ص 186.

(6) ذات المصدر.

(7) ابن جميع – طبع الإسكندرية – ص 47.

(8) مادة البقاء – ص 188.

(9) ذات المصدر – ص 190.

(10) ذات المصدر

(11) ذات المصدر ص 69.

(12) ذات المصدر – ص 200.

(13) ذات المصدر – ص 203.

(14) ذات المصدر – ص 200.

(15) ذات المصدر – ص 201.

(16) ذات المصدر – ص 201.

(17) ذات المصدر – ص 219.

(18) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 50.

(19) مادة البقاء – ص 303.

(20) ذات المصدر – ص 304.

(21) ذات المصدر – 306.

(22) ذات المصدر – ص 311.

(23) ذات المصدر – ص 320.

(24) ذات المصدر – ص 319.

(25) ذات المصدر – ص 386.

(26) ذات المصدر – ص 388.

(27) ذات المصدر – ص 390.

(28) ذات المصدر – ص 480.

(29) ذات المصدر – ص 471.

(30) ذات المصدر.

الفصل الخامس

الأطباء في العصر الأيوبي

موفق الدين يعقوب بن سقلاب أبو منصور

(560 هـ/1161م – 625 هـ/1228م)

يُدعى بالمشرقي النصراني لأن المحلّة التي عاش فيها ونزلها أجداده عندما قدموا القدس، تدعى حارة المشارقة.

ينتمي إلى عائلة أصلها من أعمال البلقاء بالأردن، وفي أوائل القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وبالتحديد أيام الملك بلدوين الأول (1100–1181م) استقرّت في جزء من مدينة القدس أصبح يعرف فيما بعد بحارة المشارقة كونه ضمَّ أولئك القادمين من شرق الأردن من عمان وحسبان وإربد والسلط وما جاورهامن أعمال البلقاء.

أما لقب (سقلاب / صقلاب) فيعتقد بأنه لقب أبيه أو جدّه نسبة إلى إسكولابيوس AESCELAPIUS إله الطب عند الإغريق، وكان يلقّب به الأطباء، مما يدعو للقول بأنه ينحدر من عائلة طبّية امتهنت الطب في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. وتّسميته بموفق الدين يعود إلى عادة اتخذّها بعض النصارى بمحاكاة أخوانهم المسلمين في الأسماء والكُنَّى، فأضاف بعض أعيان المسيحيين (الدين) إلى أسمائهم، ومنهم مشاهير الأطباء مثل: موفق الدين بن المطران، وموفق الدين يعقوب بن القفّ.

نشأ في مدينة القدس ولازم راهباً متبتّلاً فيلسوفاً متقناً لعلوم الطبيعية والطب والهندسة والحساب وأحكام النجوم تدعوه المصادر بالفيلسوف الأنطاكي، واسمه (تاذوري أوتا ودوروس) من الكنيسة الملكية في أنطاكية، وكان الفيلسوف الأنطاكي قد استوطن القدس بعد رحلات طويلة في طلب العلم والمعرفة كما يحدثنا العلاّمة أبو الفرج غريغوريوس المعروف بابن العبري[1].

أقام تاذوري في دير السيق (دير مارسابا اليوم) القريب من القدس، فلازمه ابن سقلاب، وتعلّم منه الشيء الكثير من فنون العلوم الطبية والحكمية، وبالإضافة إلى اللغة الإغريقية.

كانت فرصة طيبة لابن سقلاب أن ينهل من معين هذا الفيلسوف الحكيم، فكان يتحدّث عنه بإعجاب، ويصف معرفته للحكمة وحسن فطرته وفطنته، فقد قرأ عليه كتب أبقراط وجالينوس وغيرهما من أعلام الإغريق[2].

كان ابن سقلاب في العشرين من عمره حين رحل الفيلسوف الأنطاكي عن القدس إلى أنطاكية في عام (580هـ/1185م)، فالتحق بأستاذ آخر هو الشيخ أبو منصور النصراني الطبيب المقدسي، وقد اكتملت معارفه النظرية فاستكمل معه القسم العملي من صناعة الطب في المعالجة والمداواة.

لا نعرف الشيء الكثير عن أبو منصور النصراني سوى ما أخبرنا باقتضاب (ابن أبي أصيبعة): [كان طبيباً مشهوراً عالماً حسن المعالجة والمداواة][3].

وقد أصبح بعد تحرير القدس عام (583هـ/1187م) من أطباء الناصر صلاح الدين الأيوبي، وبقي أعواماً في خدمته، ولا يعرف تاريخ وفاته ولكن يمكن تقديرها بحوالي عام (589هـ/1174م)، أي عام وفاة صلاح الدين الأيوبي.

بدأ الحكيم يعقوب بممارسة مهنة الطب في الفترة الصليبية، فترة حكم الفرنجة للقدس (492هـ/1099م–583هـ /1187 م)، ويذكر نوربرت شفاكه N. SCHWAKE في رسالته عن تطوير المستشفيات في القدس بأن الحكيم يعقوب كان من الأطباء المعروفين في مستشفى القديس يوحّنا (الأسبتارية) الذي أنشأه الصليبيون في القدس، من دون تحديد لمصدر استند إليه[4].

بعيد تحرير القدس عام (583 هـ / 1187 م) بلغ عمر الحكيم يعقوب حوالي / 26/ عاماً، وقد بقي في المدينة مع من بقي من نصارى المشرق والتحق بخدمة الأيوبيين، وقبل ذلك بثلاثة أعوام أي في عام (580 هـ / 1184 م) عقب تحرير الناصر صلاح الدين الأيوبي للكرك، قام بزيارة مفيدة إلى دمشق واجتمع فيها بالطبيب الشهير موفق الدين بن المطران الذي قدّم له نصائح ثمينة، وأفاده من خبرته الطبية.

مثلّت هذه الزيارة محطة هامة في حياته المهنية، ونقلة معرفية فقد تعرّف عن كثب على وجوه الدولة الأيوبية، وكانت الزيارة امتحاناً حقيقياً لقدراته العملية في التطبيب والمعالجة، ففي البدء كان يلبس زيّ الأطباء الصليبيين الفرنجة: كوفية على الرأس ورداء أزرق من الجوخ، وهو ما لفت نظر الطبيب المخضرم ابن المطران فنصحه بتغيير زيّه، وقدّم له جبّة واسعة يلبسها كحال الأطباء المسلمين.

ثم اصطحبه معه إلى معالجة أحد الأمراء (ميمون القصري)، وعرّفه بأنه طبيب يوثق به، فأقام عنده أياماً حتى تعافى، فمنحه خمسمائة دينار مكافأة.

عاد الحكيم يعقوب إلى القدس، وأقام فيها فترة من الزمن، لأن القفطي ذكر بأنه عمل في بيمارستان القدس الذي أنشأه صلاح الدين بُعيد تحريرها[5].

وقد عمل الحكيم يعقوب في هذا المشفى عقب افتتاحه عام (588 هـ/1192م) وبقي فيه حتى عام (615هـ/1218م) عندما اتخذّه الملك المعظّم عيسى بن الملك العادل أبي بكر طبيباً خاصاً له، حتى وفاة المعظّم عام (624 هـ/1226م).

كان الحكيم يعقوب من أعلم أهل زمانه بمعرفة كتب الطبيب اليوناني الشهير جالينوس وتدقيق معانيها وطرق الاستفادة منها ويساعده في ذلك إتقانه للغة الإغريقية وخبرته في نقل معانيها إلى العربية، وكان يقتني أيضاً في مكتبته بعض كتب جالينوس بلغتها الأصلية الإغريقية مثل: كتاب حيلة البرء، وكتاب العلّل والأعراض، وغيرها...

ومع مواظبته لقراءة هذه الكتب باستمرار، كان حريصاً على فهمها وشرحها والعمل بمقتضاها، وتمتّع بحافظة قوية مكّنته من حفظ كتب جالينوس غيباً، حتى بلغ به الأمر إذا سئل في مسألة طبية معيّنة فيقول: [هذا ما ذكره جالينوس في كذا وكذا ورقة من المقالة الفلانية من كتاب جالينوس][6].

تعرّف الملك المعظّم على الحكيم أثناء عمله في البيمارستان الصلاحي في القدس، وكان الملك المعظّم قد اتّخذ القدس دار إقامة نائباً عن والده الملك العادل سيف الدين أبي بكر وذلك في عام (596هـ/1196م)،

وبقي فيها حتى عام (615هـ/1218م) وأصبح معجباً غاية الإعجاب بأسلوب الحكيم يعقوب في تشخيص الأمراض وعلاجها [الذي كان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث أنه إذا افتقد مريضاً لا يزال يستقصي منه عَرَضاً عَرَضاً، وما يشكوه مما يجده من مرضه حالاً حالاً إلى أن لا يترك عَرَضاً يُستدل به على تحقيق المرض إلا ويعتبره، فكانت أبداً معالجاته لا مزيد عليها في الجودة، وكان الملك المعظّم يشكو منه هذه الحالة، ويصفه: لو لم يكن في الحكيم يعقوب إلا شدة استقصائه في تحقيق الأمراض حتى يعالجها على الصواب، ولا يشتبه عليه بشيء من أمرها][7].

بعد تولّي الملك المعظّم عيسى بدمشق عام (615 هـ/1218م)، عمد إلى استدعاء الحكيم يعقوب إلى عاصمة ملكه، فترك العمل في بيمارستان القدس وأصبح طبيب المعظّم الخاص بدمشق، وكان يعتمد عليه في كثير من الآراء الطبية وغيرها، وقصد أن يوليه بعض تدبير دولته فما رضي، واقتصر على مداومة صناعة الطب فقط، ويصفه المؤرخ الطبيب (ابن أبي أصيبعة) الذي لحقه، وتتلمذ له في العاصمة السورية:

[وما شاهدته في ذلك من أمره أنني كنت أقرأ عليه في أوائل اشتغالي بصناعة الطب، ونحن في المعسكر المعظّمي، وكان أبي أيضاً في ذلك الوقت في خدمة الملك المعظّم، شيئاً من كلام أبقراط حفظاً واستشراحاً فكنت أرى من حسن تأتيّه في الشرح وشدة استقصائه للمعاني بأحسن عبارة وأوجزها وأتّمها معنى ما لا يجسر أحد على مثل ذلك ولا يقدر عليه. ثم يذكر خلاصة ما ذكره وحاصل ما قاله حتى لا يبقى في كلام أبقراط موضع إلا وقد شرحه شرحاً لا مزيد عليه في الجودة. ثم انه يورد نصّ ما قاله جالينوس في ذلك فأجده قد حكى جملة ما قاله جالينوس بأسره في ذلك المعنى، وربما ألفاظاً كثيرة من ألفاظ جالينوس يوردها بأعيانها من غير أن يزيد فيها ولا ينقص. وهذا شيء تفرّد به في زمانه][8].

ساهم الحكيم يعقوب في تدريس الصناعة الطبية في دمشق، وكان يجتمع في أوقات كثيرة بالشيخ مهذّب الدين عبد الرحيم بن علي الدمشقي المعروف بالدخوار (ت628هـ/1230م) في حضرة الملك المعظّم ويتناقشان ويتباحثان في بعض القضايا الطبية، فكان الشيخ مهذّب الدين الدخوار أفصح عبارة وأقوى حجّة وأحسن بحثاً، أما الحكيم يعقوب فكان أكثر سكينة، وأبين قولاً، وأجود نقلاً وترجمة لأنه كان بمثابة الترجمان المستحضر لما صنّف جالينوس في سائر مؤلفاته الطبية.

في سنواته الأخيرة أصيب الحكيم يعقوب بمرض النقرس في رجليه سيما الإبهام، وكان يثور به، ويتألم بسببه حتى عسرت عليه الحركة، فكان الملك المعظّم يستصحبه في أسفاره معه في محفّة ويفتقده ويكرمه غاية الإكرام، وسأله يوماً: يا حكيم، لماذا لا تداوي هذا المرض في رجليك ؟ فأجابه: يا مولانا الخشب إذا سوّس ما يبقى في إصلاحه حيلة[9].

وبعد وفاة المعظّم ملَكَ ابنه الناصر داود، فدخل عليه الحكيم يعقوب وقد وصل إلى سن الشيخوخة والهرم والضعف، وأنشده من شعر أسامة بن منقذ قائلاً:

أتيتكـــم وجلابيـــب الصـــبا قشـــب

فكيـف أرحـل عنكـم وهـي أسـمال

لـي حرمـة الضيف والجار القديم ومن

فأحسن إليه الملك الناصر داوود، وأمر بأن لا يكلّف بأي خدمة، وأن تبقى جميع حقوقه وما كان يتسلّمه كما هي حتى وفاته بدمشق في عيد الفصح للنصارى عام (625هـ/1228م): وكان للحكيم يعقوب ابن اسمه سديد الدين أبو منصور، قرأ على والده وعلى آخرين غيره، منهم الإمام شمس الدين الخسر وشاهي في الكرك (الأردن) التي أقام فيها ردحاً من الزمن، فضار من أفاضل الأطباء وأعيان العلماء، متميّزاً في علم الصناعة الطبية وعملها، متقناً لفصولها وجملها كما وصفه (ابن أبي أصيبعة)[10].

وحين انتقل الملك الناصر داوود بن الملك المعظّم إلى الكرك اتخذّه طبيباً خاصاً يعتمد عليه في الأمور الطبية، وانتقل بعد ذلك إلى دمشق حيث توفي في النصف الثاني في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.

رشيد الدين الصوري (573 هـ/1177م–639هـ/1241م)

رشيد الدين بن أبي الفضل بن علي الصوري، أبو المنصور.

ولد في صور أثناء احتلال الفرنج لها، ثم انتقل إلى بغداد ومكث فيها فترة قصيرة، وغادرها بعد ذلك إلى دمشق، حيث درس صناعة الطب في مجلس الشيخ الطبيب موفق الدين عبد العزيز بن عبد الجبار بن أبي محمد السلمي (ت 604هـ/ 1207م)، وكان هذا الشيخ فقيهاً في المدرسة الأمينية الواقعة بالقرب من الجامع الأموي، ودرس كذلك على الشيخ موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (ت 629هـ / 1231م) وكان قد استقر بدمشق قادماً من الموصل.

انتقل رشيد الدين الصوري إلى القدس، وكانت المحطة الأبرز في سيرته العلمية، وأقام بها سنين كان يطبّب المرضى في بيمارستان القدس الذي أنشأه الناصر صلاح الدين عام (588هـ/1192م).

وتعرّف في القدس على الشيخ النباتي أبي العباس الجياني (وكان شيخاً فاضلاً في الأدوية المفردة متفنّناً في علوم أخر، كثير الدين، محبّاً للخير) (11)، ودرس بإشرافه خواص النباتات والأعشاب الطبية، وتعرّف على أسرارها ودقائقها، حتى تميّز على كثير من أربابها والعاملين في هذا المضمار.

خدم بصناعة الطب الملك العادل أبا بكر بن أيوب عام (612هـ/12515م)، شقيق الناصر صلاح الدين الأيوبي، فاستصحبه معه إلى الديار المصرية وحظي عنده، وبقي في خدمته إلى أن توفي الملك العادل عام (615هـ/1218م)، ثم خدم لولده الملك المعظّم عيسى، وكان مكيناً عنده، وجيهاً في أيامه، وشهد معه مَصافّات عدّة مع الفرنج عندما نازلوا ثغر دمياط بساحل مصر وذلك بين (615هـ/1218م–618هـ 1221م) حتى استردّها منهم.

ولم يزل في خدمته حتى وفاته عام (624هـ / 1227م)، انتقل بعدها إلى خدمة ابنه الملك الناصر داود بن عيسى (ت 656هـ / 1258م)، الذي حفظ له سابق خدمته لأبيه وجدّه، فأجرى عليه مرتّباته، وفوّض إليه رئاسة الطب، وبقي في خدمته إلى أن توجّه الناصر إلى الكرك بالأردن. فانتقل هو إلى دمشق وأقام بها، فكان له مجلس للطب يتردّد إليه الباحثون وطلاّب الطب وغيرهم، ويشتغلون عليه بالصناعة الطبية.

حرّر ادوية (الترياق الكبير) وجمعها على ما ينبغي نفعه، وعظمت فائدته. وكان الترياق أهم وأثمن دواء آمن بفائدته كثير من الأطباء والمرضى والمسمومين، منذ أزمان بعيدة، وتعددّت أنواعه، واختلفت الأدوية المفردة والمركّبة الموجودة فيه، وبما أن تحضيره يتطلّب خبرة لا تتوافر إلا لعدد قليل من كبار الأطباء، اهّتم رشيد الدين بن الصوري بانتخاب وتنقية أدوية الترياق الكبير، ومنها لحوم الأفاعي، وجمعها على ما ينبغي، وقدّمه لبعض المرضى فظهر نفعه وعظمت فائدته، وكان قد صنع شيئاً كثيراً منه في أيام المعظّم عيسى، وجعله باسمه واستقصى في ذكر الأدوية المفردة، وذكر أيضاً أدوية اطّلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدّمون من العلماء.

آثاره:

صنّف عدة مؤلفات، أشهرها: كتاب في الأدوية المفردة، بدأ بتأليفه أيام الملك المعظّم، وجعله باسمه، واستقصى فيه الأدوية المفردة التي ورد ذكرها في مؤلفات من سبقه من علماء العقاقير، وأضاف إليها ما اطلّع عليه من نباتات طبّية عرف صفاتها ومنافعها، ولم يذكرها المتقدّمون، وقد تضمن هذا الكتاب على ما قيل صور النبات في جميع مراحل نموّه، وكان يستصحب معه ألوانها وأنواعها، فكان يتوجّه إلى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان ومحيط القدس وغيره من المواضع التي اختصّ كل منها بصنف من النبات، فيشاهد النبات ويحقّقه ويريه للمصّور، فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله، فيصّورها بحسبها، ويجتهد في محاكاتها، ثم سلك في تصوير النبات مسلكاً مفيداً لم يسبق إليه، فلم يكتف بدراسة النبات نظرياً، بل ابتدع الطريقة العلمية التي تعتمد التجربة المنهجية، وذلك بأنه كان يري النبات للمصّور الرسّام في إبان نباته وطراوته فيصوّره، ثم يريه إياه في يبسه فيصوّره، فيكون تحقيقه له أتمّ ومعرفته له أبيَن.

وقد وصفه تلميذه (ابن أبي أصيبعة) بقوله: [اشتمل على جمل الصناعة الطبية، واطلّع على محاسنها الجليّة والخفيّة، وكان أوحداً في معرفة الأدوية المفردة وماهّيتها، واختلاف أسمائها وصفاتها وتحقيق خواصّها وتأثيراتها][12].

ومن مؤلفاته أيضاً:

– الكافي في طب العيون، أو تذكرة الكحالين في طب العيون:

النسخة المخطوطة في المكتبة الظاهرية (دمشق) رقم (2/43) طب.

– الرّد على كتاب التاج للغاوي في الأدوية المفردة.

– تعاليق وفرائد ووصايا طبية كتبها إلى تلميذه ابن أبي أصيبعة.

رشيد الدين القدسي (ت 646هـ/1248م)

رشيد الدين بن موفق الدين يعقوب القدسي أبو سعيد من نصارى القدس، تعلّم العربية والنحو في حلقة تقي الدين خزعل ابن عسكر بن خليل شيخ العربية في زمانه.

انتقل إلى دمشق ودرس الطب في مجلس الطبيب رشيد الدين علي بن خليفة (ت616هـ/1219م) وهو عم المؤرخ ابن أبي أصيبعة، وقد وصفه بقوله:

[لم يكن في تلامذته مثله، فإنه لازمه حق الملازمة، وكان لا يفارقه في سفره وحضره، وأقام عنده بدمشق، وهو دائم الاشتغال عليه، إلى أن أتقن حفظ جميع ما ينبغي أن يحفظ من الكتب التي هي مبادئ لصناعة الطب، ثم قرأ عليه كثيراً من كتب جالينوس وغيرها، وفهم ذلك فهماً لا مزيد عليه][13].

ثم تتلمذ من بعده للطبيب العلاّمة مهّذب الدين ابن عبد الرحيم الدخوار (ت 628هـ/1230م).

انتقل إلى القاهرة عام (632هـ/1248م) وخدم الملك الكامل محمد وبقي في خدمته زمناً مقيماً في القاهرة، ثم خدم بعد ذلك ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب نحو تسع سنوات، وتوفي في دمشق عام (646هـ / 1248م) خلال زيارته لها مع الملك الصالح، الذي توفي في العام الذي يليه جرّاء مرض السّل، في ناحية المنصورة بمصر، وهو يستعدّ لقتال الفرنج.

ومن آثاره:

كتاب عيون الطب، صنّفه للملك الصالح ويحتوي على علاجات طبية مختارة. وتعاليق على كتاب الحاوي في الطب لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي.

التنوخي، علي بن يوسف (ت بعد 656هـ/1258م)

علي بن يوسف بن عبد الله بن علي التنوخي، المقدسي، أبو الحسن، طبيب وصيدلاني بالإضافة إلى كونه نباّتياً وعشاّباً.

مسقط رأسه القدس حيث لقبه المقدسي، ينتمي إلى عائلة من الأطباء والعشاّبين، فقد كان جده رشيد الدين بن الصوري (ت639هـ/1241م) من الأطباء المشهورين كما مرّ سابقاً.

كان التنوخي كثير الأسفار، وتنقّل في مدن بلاد الشام كلها، كما وصل إلى بغداد، وتجوّل في سواحل البحر الأبيض المتوسط من مدينة الإسكندرية إلى أنطاكية شمالاً مروراً بطرابلس وغيرها.

وتابع رحلاته إلى بلاد الروم وجزيرة صقلية ورودس اليونانية، وهدفه المنشود استكمال تحصيله الطبي، والتعرّف عياناً على النباتات الطبية في مواطنها الأصلية، وتبادل المعلومات العلمية مع النباتيّين والعشاّبين في تلك المناطق.

يحتل التنوخي مركزاً هاماً في علم النبات، والمؤسف أن هذا العالم النباتي والطبيب والصيدلاني قد أغفل ذكره ولم يلق الاهتمام الذي يستحقه.

ومن خلال كتابه الهام (الأشرف في صناعة الترياق المنقذ للنفوس الشريفة من التلف) نتبيّن بعض تفاصيل حياته، وأنه قدّم مادة علمية نباتية جيدة، ويعتبر من المؤسّسين لعلم النبات المستقل، ومن الذين أثروا التأليف المعجمي الطبي النباتي بمنهج علمي قائم على القياس والتجربة والمشاهدة العيانية والبحث والاستفسار من ذوي الشأن والمهتمّين.

ارتبطت حياته المهنية بالبحث والتفتيش عن مفردات الترياق المتعدّدة وإيجادها في مظاّنها الأصلية، كما يقول:

[رأيت جماعة من مشايخ الأطباء الذين ينسبون أنفسهم بالعظمة والمشيخة غالطين في أكثر عقاقيره، وإبدالها بغيرها، بما هو مخالف لمزاج ما بدّل منه، وتصحيف أسمائها، ومقلّدين الشجاّرين في غلطهم، وإذا غلط واحد

اتّبع غلطه جماعة، ويعذرون بأن فلاناً عمل كذا، كالذي يحّتج بدين آبائه، وإن كان الذي يقدّمه أجهل الناس بعلم العقاقير وقواها][14].

كان اهتمام التنوخي بعلم النبات لغايات طبية وصيدلانية، وتقوم طريقته المنهجية على وصف لشكل النبات الظاهر وصفاً دقيقاً، ويستعين بأقوال القدماء.. أمثال ديسقوريدس وجالينوس لتأييد أقواله، ثم يورد الوصف التفريقي الشكلي للنبات مع أي نبات آخر قد يتشابه معه في الشكل كما يقول عن نبات الدار صيني (القرفة):

[رأيته ببغداد كثيراً، معروف مجلوب إليها، وشربت منه في سنة إحدى وعشرين وستمائة للهجرة النبوية المحمديّة، واستعمله شيخي في ترياقه لمّا حملته إليه][15].

ويظهر لنا ممارسته العملية للطب، فهو يورد مشاهداته الطبية، وتجاربه والنتائج التي توصّل إليها، فهو يقول عن نبات الأشقرديون (الثوم):

[ينبت بدمشق كثيراً، وسقيت منه في بعض الأسفار عند طلب الأدوية رجلاً نهشته أفعى في ساقه وورم، فما استقرّ في معدته حتى تخلّص][16].

كما نتبيّن بأنه كان يجري تجارب عملية مخبرية تتضمّن زرع واستنبات بعض النباتات الغريبة غير الموجودة في محيطه الجغرافي، أو التي تجلب من مناطق بعيدة، فيقول:

[وأخذت من حبّها فوجدت ريحه يشبه ريح البلسان، وزرعتها أول أخذها، ونبت قصب طوله ذراع][17].

كما ذكر الترياق الذي ركّبه جده وشيخه (ابن الصوري) للسلطان الأيوبي الملك العادل سيف الدين أبي بكر سنة (610هـ/1212م) بالقاهرة، وكذلك الترياق المصنوع للملك الأيوبي عيسى المعظّم في أوائل سنة (626هـ/1229م).

انغمس التنوخي لفرط ثقته وحماسته في خلافات مريرة مع أبرز علماء عصره ضياء الدين ابن البيطار (ت646 هـ/1248م)، و دخل معه في مناقشات علمية ومنازعات مريرة، واتهامات متبادلة لا تخلو من التجنّي والتحامل، مثل الخلاف حول تسمية بعض النبات وتفريقها، كما يقول:

[واجتمعت بعبد الله بن البيطار المؤلف للكتاتيب وباحثته طويلاً، وقد علم من حضر منازعتي تمييزي بما لا احتاج معه إلى زخرفة في القول، وكان رحمه الله راوية دون مباشرة، لأنه اجتمع بي في أطراف جبال لبنان، وطلب مني أدوية موجودة بين رجليه، فعلمت أنه ناقل غير مباشر، فحينئذ رغبت في وضع كتاب الترياق لا يحتاج طالب تركيبه إلى غيره][18].

آثاره:

– الكتاب الأشرف في صنعة الترياق المنقذ للنفوس الشريفة من التلف:

توجد نسخته المخطوطة في مكتبة خدابخش بتنه – الهند[19].

هوامش الفصل الخامس

(1) ابن العبري – تاريخ مختصر الدول – ص 238.

(2) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 698.

(3) ذات المصدر – ص 61.

(4) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – حتى 110.

(5) القفطي: علي بن يوسف – أخبار العلماء – ص 248

(6) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 697.

(7) ذات المصدر – ص 698.

(8) ذات المصدر.

(9) ذات المصدر – ص 699.

(10) ذات المصدر.

(11) ذات المصدر – ص 700.

(12) ذات المصدر.

(13) ذات المصدر – ص 599.

(14) الذاكري: محمد فؤاد – موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين (4 / 655)

(15) ذات المصدر (4 / 656).

(16) ذات المصدر.

(17) ذات المصدر.

(18) ذات المصدر (4 / 657).

(19) بروكلمان: كارل – تاريخ الأدب العربي (5 / 280).

الفصل السادس
عائلة ابن أبي فانة الطبية المقدسّية

عرفت القدس في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي تسعة أطباء ينتمون لعائلة واحدة، وكانت وطيدة الصلة بسلاطين بني أيوب، ألا وهي عائلة ابن أبي فانة النصرانية المقدسية.

جدّ هذه العائلة هو الطبيب المشهور أبو سليمان داوود بن أبي المنى بن أبي فانة من أهل القدس، ولكنه انتقل إلى الديار المصرية وحظي عند الملوك الفاطميين لتقدّمة في الصناعة الطبية علماً وعملاً، وتميّزه في العلوم الحكمية وأحكام النجوم. وكان له خمسة أولاد، أربعة تميّزوا بصناعة الطب، وخامسهم احترف الجندية بيد أنه خلّف من أبنائه وأحفاده أربعة أطباء مشاهير.

تعرّف الطبيب أبو سليمان داوود في ثغر دمياط على ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية عموري [أموري الأول الذي حكم من (557هـ/1162م) ولغاية وفاته عام (هـ/1174م)، وقد أعجبه طبّه، فطلبه من الخليفة الفاطمي ونقله هو وأولاده الخمسة إلى بيت المقدس.

اشتهر أبو سليمان داوود بتركيب الترياق الفاروق على عادة غالبية الأطباء المقادسة، فعالج به ابن ملك الفرنج المصاب بالجذام وهو إن لم يشفه تماماً، إلا أنه ساعد على تخفيف أعراض هذا المرض المخيف، كما ساعدته معرفته الوثيقة بعلم أحكام النجوم على التنبؤ الصحيح لمستقبل المنطقة السياسي، واستطاع أن يستّغل ذلك بحنكة ودهاء لصالح ولصالح عائلته من بعده.

فأرسل ولده الفارس أبا الخير الذي احترف الجندية لوحده من بين أشقائه الأربعة، وحملّه رسالة إلى الناصر صلاح الدين مفادها بأنه قد ظهر له في أحكام النجوم بأنه سيفتح القدس في اليوم الفلاني من الشهر الفلاني من السنة الفلانية، وكان خبراً سعيداً للناصر صلاح الدين، فرح به فرحاً شديداً، وأعطى أبا الخير علماً أصفراً، وطلب منه أن ينصبه فوق داره في موعد الهجوم على القدس.

وهكذا نجا أبو سليمان داوود وعائلته بل ودور الحارة التي يسكنها من الأسر والقتل والجزية خلال الأعمال الحربية التي رافقت فتح القدس.

توفي الحكيم أبا سليمان بعد فترة قليلة، بعد أن أوصى صلاح الدين بأولاده خيراً، الذي لبّى طلبه، وطلب من أخيه الملك العادل أن يرعاهم ويتولّى شؤونهم، ويكونوا من جملة خواصّه[1].

نشأ ولده الأكبر مهذّب الدين أبو سعيد متميّزاً في صناعة الطب مثل أبيه، وقد تعلّمها منه ومن بقية أطباء القدس، وخدم الناصر صلاح الدين وأخاه الملك العادل، الذي جعله في خدمة ولده الملك الكامل، وانتقل إلى الديار المصرية وأقام بها إلى حين وفاته عام (613هـ / 1216م)[2].

أما الولد الثاني فهو موفق الدين أبا شاكر، قرأ صناعة الطب على أخيه الأكبر أبي سعيد وأصبح متقناً لها، متميّزاً في عِلمها وعَملها جيد العلاج، وقد جعله الملك العادل في خدمة ولده الملك الكامل، فبقي في خدمته،

وحظي عنده الحظوة العظيمة، وكان يعتمد عليه في المداواة ويصفه بحسن العلاج، حتى بلغ به الأمر أنه أسكنه معه في مقرّه بالقاهرة، ووهبه اقطاعات ضياع، وهبات وافرة.

وتوفي أبو شاكر في القاهرة في ذات العام الذي توفي فيه أخوه أبو سعيد (613هـ / 1216م)[3].

والابن الثالث هو أبو نصر، وكان طبيباً عارفاً بصناعة الطب، وتوّفي بالكرك[4].

أما الطبيب الرابع من أبناء أبي سليمان داوود فهو أبو الفضل، وهو أصغر أخوته ولد عام (560هـ / 1164م) وتوفي عام (644هـ / 1245م)، فمدة حياته أربع وثمانون عاماً لم يبلغها أحد من أخوته، وكان طبيباً للملك المعظّم عيسى (ت 624هـ / 1226م) وأقام في الكَرك، ثم انتقل إلى خدمة الملك الكامل بمصر وتوفي بها.

خلّف الابن الخامس من أبناء الطبيب أبي سليمان داوود وهو الجندي الفارس المكنى بأبي الخير، ولداً وثلاثة أحفاد كانوا كلّهم من جلّة الأطباء.

أما الابن فهو رشيد الدين أبو الوحش بن الفارس أبي الخير بن أبي سليمان داوود، ويعرف بأبي حليقة.

ولد بقلعة جعبر عام (591هـ / 1194م)، وخرج منها إلى الرها وعاش فيها مع والده الفارس أبي الخير سبع أو ثمانِ سنوات.

وقد نصح السلطان الملك العادل أباه أبا الخير، الذي كانت داره تجاور قصر السلطان بالرها، بألاّ يعلّمه الجندية بل الطب، قائلاً له: [ولدك هذا ولد ذكي لا تعلّمه الجندية، فالأجناد عندنا كثيرون، وأنتم بيت مبارك، وقد استبركنا بطبّكم، تسّيره إلى الحكيم أبي سعيد (عمّه) ليقرئه الطب][5].

وقد امتثل والده للأمر فأرسل ابنه إلى دمشق لتعلّم صناعة الطب، وفي عام (609هـ / 1212م) رحل إلى القاهرة، وخدم بصناعة الطب الملك الكامل، ونال منه الإحسان الوفير، وبعد وفاة عمّه موفق الدين أبي شاكر، جعل الملك الكامل إقطاعه لابن أخيه رشيد الدين أبي حليقة، وخدم بعد الملك الكامل ولده الملك الصالح أيوب، ثم ولده الملك الصالح تورانشاه الذي قتل عام (648هـ / 1250م).

اشتهر أبو حليقة بحسن المعالجة وأساليبه المتميّزة في التشخيص وتحضير الأدوية، ومن خصوصياته الطبية اعتباره أن لكل إنسان خصائصه وعاداته في تقبّل المرض أو البرء منه، فكان يتقصّى سيرة المريض الجسدية والنفسية ويعتمدها في تشخيصه لمرض.

ومما تميّز به الطبيب قيامه بتصنيع الدواء والترياق جرياً على عادة أسلافه من أطباء بيت المقدس، وقد صّنع ترياقاً مختصراً للترياق الفاروق واستخدمه بنجاح في علاج الفالج (الشلل) لأنه يحسب ابن أبي اصيبعة: [ينشئ في العصب زيادة في الحرارة الغريزية، وتقوية وإذابة البلغم الذي فيه][6]، ومن المتوّقع أن مفردات هذا الترياق لها خاصّة تنشيط الدورة الدموية مما يساعد على طرح نتائج استقلاب الخليّة الحيّة، وبالتالي تستعيد الخلية نشاطها، ولاسيما الخلايا العصبية وخلايا الألياف العضلية.

اهتم أبو حليقة بتحضير مركّبات ضمن مجال (الطب الغذائي)، فقام بتصنيع مزيج عشبي متبّل بمقادير محسوبة وطريقة حفظ محدّدة، تناوله الملك الكامل ناصر الدين فأثنى عليها.

وعرف عنه تشخصيات مرضية تتعلّق بحالات نفسية، فقد شخّص بدقة حالة شاب غلب عليه النحول والمرض، وقد أعيت فيه المداواة وهو لا يزداد إلا سقامة ونحولاً، فحدس بأنه شاب عاشق، ويعلّق ابن أبي اصيبعة [وهذا يدّل على وفور العلم، وحسن النظر في تقدمة المعرفة][7].

وتنوقل عن هذا الطبيب الألمعي أيضاً قصائد وجدانية رقيقة، منها قوله:

خليلي إنّي قد بقيت مُسهّداً

من الحبِّ مأسورَ الفؤاد مقيَّداً

بحب فتاة يُخجل البدر وجهُها

ولاسيما في ليل شعر إذا بدا

ومن مؤلفاته:

- مقالة في حفظ الصحة.
- مقالة في أن الملاذ الروحانية ألذّ من الملاذ الجسمانيّة.
- كتاب في الأدوية المفردة، سمّاه المختار في الألف عقار.
- كتاب في الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها بالأدوية المفردة التي قد أظهرت التجربة نجحها.
- مقالة في ضرورة الموت: ويعيد فيها سبب الموت إلى الحرارة الخارجية والحرارة الداخلية في بدن الإنسان، ويشير إلى ذلك ببيت من الشعر

وإحداهما قاتلتي

فكيف إذا استجمعا

مهذّب الدين محمد بن أبي حليقة، أبو سعيد

(ت 679هـ /1280م)

خلّف الطبيب رشيد الدين أبو حليقة ثلاثة أبناء احترفوا الطب، ابنه الأكبر الطبيب مهذّب الدين أبو سعيد محمد، سمّي محمّداً بعد إسلامه أيام الملك الظاهر بيبرس، وكان مقرّباً منه.

والواقع أن عائلة الطبيب رشيد الدين أبي حليقة ظاهرة قلّ أن تتكرر في التاريخ الطبي، فمن النادر أن يكون الأب الطبيب وأولاده الأطباء في ذات الفترة الزمنية في خدمة رأس السلطة الحاكمة ويحظون بنفس الدرجة من الأهمية، وبتنسيق محكم بدون أي تضارب في الصلاحيّات والمصالح.

قرظّه معاصره وزميله (ابن أبي اصيبعة) كثيراً، قائلاً: [منحه الله من العقل أكمله، ومن الأدب أفضله، ومن الذكاء أغزره، ومن العلم أكثره، وقد أتقن الصناعة الطبية، وعرف العلوم الحكمية فلا أحد يدانيه فيما يعانيه، ولا يصل إلى الخلائق الجميلة التي اجتمعت فيه] [8].

وقد راسله عام (667هـ / 1268م) يخبره فيها بأنه وجد نسخة مخطوطة من كتابه الهام (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) في مصر وقد اقتناه وصار من جملة كتبه، وخاطبه قائلاً:

وإنـــي امـــرؤ أحببـــتكم لمحاســـن

سـمعت بهـا والأذن كـالعين تعشـق

وردّ عليه ابن أبي أصيبعة شاكراً، ومذّكراً بالصداقة التي تربطه مع هذه العائلة الطبية الفريدة:

أتـاني كتـاب وهـو بـالنقش مونـق

وفيه المعاني وهي كالشمس تشرق

لوالدهـــم عنـــدي أيـــاد قديمـــة

فشـكري لهـم طـول الزمـان محقّـق

أما الابن الثاني فهو موفق الدين أبو الخير، كان كحّالاً (طبيب عيون) غزيز العلم والفضل، وصنّف للملك الصالح نجم الدين أيوب كتاباً في الكحل (طب العيون) قبل أن يبلغ العشرين من عمره[9].

والابن الثالث علم الدين أبو نصر، وهو الأصغر، وكان أيضاً متميّزاً في صناعة الطب وافر العلم والذكاء[10].

هوامش الفصل السادس

(1) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 588 – 589.

(2) ذات المصدر – ص 589.

(3) ذات المصدر – ص 589 – 590.

(4) ذات المصدر – ص 590.

(5) ذات المصدر – ص 591.

(6) ذات المصدر – ص 593.

(7) ذات المصدر – ص 595.

(8) ذات المصدر – ص 598.

(9) ذات المصدر – ص 599.

(10) ذات المصدر.

الفصل السابع
الأطباء في القرن السادس والسابع الهجري

ومن أطباء العصر الأيوبي ذوي **الأصول المقدسية**، فخر الدين محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن المقدسي، الأنصاري، المارديني.

ولد بمدينة ماردين ولكن أجداده من القدس، وكان أبوه قاضياً، ولما فتح نجم الدين ايلغازي بن ارتق القدس بعث جده عبد الرحمن إلى ماردين فاستّقر بها مع أولاده.

كان المارديني علاّمة وقته في علوم الحكمة، جيد المعرفة بصناعة الطب، متفنّناً في العربية، وأقام في مدينة حيني التركية (في ديار بكر) سنين عديدة في خدمة نجم الدين أرتق.

وفي عام (587هـ/1191م) زار دمشق ودرّس بها صناعة الطب وكان له مجلس عام للتدريس، وأقام بها نحو عامين، ومن طلاّبه مهذّب الدين بن عبد الرحيم بن علي الدخوار الذي أصبح فيما بعد شيخ الصناعة الطبية في بلاد الشام في القرن السابع الهجري.

ثم قصد العودة إلى بلده مارّاً بحلب، ولكن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين استبقاه عنده فبقي في خدمته عامين سافر بعدها إلى ماردين، وتوفي عام (594هـ / 1197م) بآمد[1].

أما الطبيب الثاني فهو نجم الدين أبو زكريا يحيى بن محمد بن عبدان بن عبد الواحد بن اللبودي، وقد تردّد إلى القدس أكثر من مرة، بحكم طبيعة عمله، فهذا الطبيب كان أوحد زمانه في العلوم الطبية والحكمية، شاعر متقن للعربية وآدابها، التحق بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب في الديار المصرية، فأكرمه وعلت منزلته، وجعله ناظراً على ديوان الأسكندرية، ثم صار ناظراً على ديوان دمشق وكافة المدن الشامية، وحضر للقدس عام (661هـ / 1262م) وأخرى عام (666هـ / 1267م) ونظم فيها قصيدة مطلعها:

ألا يا خليل الله عندي صبابة
وشوق إلى لقياك زاد بها كربي
فأنت الذي سننت للناس مذهباً
فكنت به الهادي إلى السنن الرحب

ابتدأ بالتصنيف والتأليف منذ أيام شبابه وله من العمر ثلاث عشر سنة وحتى وفاته عام (670هـ / 1271م)، وله من الكتب الطبية:

مختصر الكلّيات من كتاب القانون لابن سينا، مختصر كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا، مختصر كتاب المسائل لحنين بن اسحق، تدقيق المباحث الطبية، مقالة في البرشعثا.

وكتب في النجوم والطلاسم والرياضيات والفقه والفلسفة والعلوم الطبيعية[2].

أما الطبيب الثالث ففي نسبته خلاف غير محسوم، فقد نوّه (كارل بروكلمان) في كتابه الشهير [تاريخ الأدب العربي (5 / 278 – 279) عن نسخة مخطوطة موجودة في مكتبة جوتا (ألمانيا) برقم (1993) وبعنوان (نتائج الفكر في أمراض البصر)، لمؤلفها: فتح الدين أبو العباس أحمد بن عثمان بن هبة الله المقدسي (ت 657هـ / 1259م)، وفي نسخة أخرى من المخطوطة موجودة في مكتبة باريس برقم (3004) ورد اللقب (القيسي) عوضاً عن (المقدسي)، وأيّد ذلك مصادر تاريخية أخرى، منها (كشف الظنون 2 / 1926) للمؤرخ الشهير حاجي خليفة، وابن أبي أصيبعة، أيضاً في (عيون الأنباء / 585).

لا نعرف الكثير عن هذا الطبيب، ويخبرنا أحد الباحثين بأنه (... ولد وترعرع بالقدس....)[3] دون أي دليل أو سند.

موفق الدين عبد الطيف بن يوسف البغدادي

(557هـ/1162م–629هـ/1232م)

طبيب، كيميائي، عالم، أديب، محدّث، مؤرّخ، جغرافي يعرف بابن اللبّاد، أو ابن النقطة.

موصلي الأصل، ولد في بغداد عام (57هـ/1162م) ونشأ في بيت معظم أفراده من العلماء والفقهاء والمحدّثين.

بدأ دراسته في بغداد وأخذ عن شيوخها، وفي عام (585هـ/1189م) قال:

[لم يبق في بغداد من يأخذ بقلبي ويملأ عيني][4].

ارتحل إلى الموصل فلم يجد فيها بغيته، وأقام فيها سنة في دراسة دائمة، في عام (586هـ/1190م) توجّه إلى دمشق وناظر علمائها وألّف عدّة مصنّفات. ثم قصد ظاهر عكّا للاجتماع بصلاح الدين الأيوبي، ولكنه اجتمع برجاله: بهاء الدين بن شداد، والعماد الأصفهاني، والقاضي الفاضل الذي توسط له بدخول مصر، حيث مكث فيها فترة.

وشاع أن صلاح الدين هادن الإفرنج وعاد إلى القدس، فتوجّه إليه، واصطحب معه من كتب القدماء ما أمكنه، ويصف لقاءه بصلاح الدين وتفاصيل حياته اليومية، حيث كان صلاح الدين يشارك بنفسه في بناء أسوار القدس وحفر الخنادق، ويحضر مجالس العلم، وكان مثالاً حيّاً للجميع في العلم والعمل [وتوجّهت إلى القدس فرأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة والقلوب محبّة، قريباً ُ بعيداً، سهلاً محبّباً، وأصحابه يتشبّهون به، يتسابقون إلى المعروف... وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويتفقّه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع.

وكان مهتمّاً في بناء سور القدس وحفر خندقه، يتولّى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسّى به جميع الناس الفقراء والأغنياء، والأقوياء والضعفاء... ويصرف أكثر الليل في تدبيره ما يعمل نهاراً][5].

ولاحظ عبد الطيف البغدادي بأن صلاح الدين كان يلتزم مع معاونيه وبطانته مبدأ الثواب والعقاب دون محاباة، فكانت الأخبار تتناقل عنه وعن بطانته في الحياة العملية والسلوك الشخصي لا تدع مجالاً لظهور أي انحراف أو سلوك شائن، وربما كان ذلك وراء النجاحات العسكرية العظيمة التي حققّها للبلاد والنفوس والعقول وارتبطت باسمه.

عاد البغدادي إلى دمشق واكبّ على الاشتغال وإقراء الناس بالجامع، واستمر إلى ما بعد وفاة صلاح الدين عام (589هـ / 1193م) حيث غادر إلى مصر، واسّتقر في كنف الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الذي منحه الراتب والجرايات.

توجّه بعدها إلى القدس واسّتقر فيها للمرة الثانية لفترة استمرت زهاء عشر سنوات، وكان يتردد إلى المسجد الأقصى، ويتهافت عليه طلاّب العلم لسماع دروسه، وأسهم في دفع الحركة الطبية في فلسطين، وصنّف خلالها الكثير من المؤلفات، منها كتابه الشهير (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر). بعد حصول الغلاء العظيم والوباء الذي أصاب الماشية فأدّى إلى هلاكها، وأورد صوراً حسيّة عنيفة حول المجاعة التي ألمّت بمصر نتيجة انحسار مياه النيل لعامين متتاليين (597 – 598 هـ) وكان نتيجته انعدام القوت وحصول مجاعة بين أفراد الشعب.

بعد إقامته في القدس قصد دمشق عام (604هـ / 1208م) للتدريس والتصنيف، وتتابعت رحلاته إلى حلب وبلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة، حتى وفاته عام (629هـ/1231 م) في بغداد.

صنّف البغدادي عشرات الكتب والمقالات في مختلف العلوم، ومنها الطبيّة، فقد كان يدّرس الطب وتشريح الجسم الإنساني في مصر والقدس، وحمل تلاميذه على صدق الوصف والمشاهدة، والاهتمام بالتجارب والاختبارات.

ومن كتبه الطبيّة، اختصار (مادة البقاء) لأبي عبد الله التميمي الذي أشرنا إليه، وشرح كتاب الفصول لأبقراط وكتاب تقدمة المعرفة، واختصار كتاب الحيوان لأرسطو طاليس ووضع مختصرات عديدة أخرى لكتب عدد من الأطباء، مثل اختصار كتاب الأدوية المفردة لإبن وافد الأندلسي، وله أيضاً عشرات المقالات الطبيّة في العطش والماء وحقيقة الدواء والغذاء ومعرفة طبقاتها... ومقالات وكتب أخرى كثيرة ومتنوعة وضع ابن أبي أصيبعة ثبتاً مطوّلاً بها[6].

هوامش الفصل السابع

(1) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 402 – 403.

(2) ذات المرجع – ص 668.

(3) حمارنة: سامي – تاريخ الطب في القدس – ص 15.

(4) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 686.

(5) ذات المرجع – ص 686.

(6) ذات المرجع – ص 693 – 696.

الفصل الثامن

الطب والطبابة والأطباء في الفترة المملوكيـة

(648 هـ/1250م -922هـ/1516م)

امتَّد عصرُ المماليك أكثر من قرنين ونصف، ووصف بأنه عصرُ القوة السياسية للدولة، فقد تمكَّن قادةُ المماليك من توحيد الجناحين مصر والشام، وطرد الصليبيين والمغول، ودحر عدوانهم واحتلالهم، كما كان عصر القوة الاقتصادية أثمر عنه نشاطٌ تجاريٌ واسع النطاق، وبناء العديد من المنشآت الحضارية: المدارس، الرباطات، المساجد، المستشفيات وغيرها... ولا تزال العديد منها شامخةً في بلادِ الشام ومصر.

اهتم أمراءُ المماليك في القدس بتحسين مستوى الصحة العامة ومعالجة الأمراض، فأنشاؤا العديد من الرُبَط [م. رباط] وكانت مخصّصة لإيواء المسافرين والحجّاج الوافدين على القدس، وللمساكين والفقراء المقيمين في القدس، والمحتاجين لسكن، ويمكن للمرضى أن يقيموا بها لفترة على أساس أنهم محتاجون، وبالإضافة إلى الإقامة كانت تُصرف لهم وجبات الطعام على ما كانت تحدّده وقفية كل منها[1].

وكان يوجد في العصر المملوكي سبع رُبَط هي: رباط علاء الدين البصير، والرباط المنصوري، ورباط كرد، ورباط التنكزية، والرباط الحموي، والرباط المارديني، والرباط الزمني[2].

اهتمت سلطات المماليك في القدس بتعمير وصيانة منشآت المياه في القدس، وهو اهتمام ساعد على تزويد سكان القدس بالمياه بصورة مقبولة، وساهم أيضاً في تحسين مستوى العناية بالصحة العامة، وتحسين الأحوال الصحّية في المدينة.

فقد أنشأ السلطان برقوق (بركة السلطان) بالقدس عام وفاته (801هـ / 1398م)، و قامت سلطات المماليك بتعميرات شاملة متكرّرة للشريان الحيوي الذي كان ينقل المياه إلى مدينة القدس، وهي قناة السبيل التي كانت تنقل المياه من العروب (بين القدس والخليل) إلى القدس.

ومن حكّام المماليك الذين ساهموا في تعمير قناة السبيل الظاهر بيبرس، والسلطان الناصر بن قلاون بوساطة نائبه الشهير تنكز، والسلطان خشقدم في عام (865هـ/1460م)، وكذلك جدّد السلطان قايبتاي تعمير القناة عام (874هـ/1469م)، ومرة أخرى عام (888هـ/1483م)[3]، وكذلك تمَّ رصد الأوقاف اللازمة للإنفاق على مصالح هذه القناة.

ويذكر الباحث كامل العسلي بأنه يوجد في القدس إلى اليوم آثار لثمانية وعشرين سبيلاً للماء، منها تسعة تعود إلى عصر المماليك، وهي: سبيل باب الحبس، سبيل تنكز، وسبيل زاوية القُرَمي، وسبيل خان السلطان، وسبيل تربة بركة خان، وسبيل قايتباي، والأخير هو أجمل الأسبلة في القدس وأفخمها بناءً[4].

ومن منشآت المياه الأخرى التي اهتمّت سلطات المماليك في إنشائها وتعميرها في القدس. حمّام الشفا وحمّام العين وحمّام العذراء مريم، وحمّام البطرك، وحمّام علاء الدين البصير[5].

من المعروف أنه في العصور الإسلامية المختلفة كانت الحمّام مركزاً من مراكز الحياة الاجتماعية، تتمّ فيها كثير من الطقوس والمناسبات الهامة في حياة الإنسان، فالمرأة الحامل كانت تذهب إليه لتلد بسهولة، ثم تأتي إليه في اليوم الأربعين بعد الولادة. كما كان العريس يذهب إليه قبل الزواج، والعروس تذهب إليه لتستّحم، وتزيّن نفسها، ثم لتعرض ملابسها وجهازها أمام القريبات والصديقات.

ويمكن اعتبار الحمّامات بأنها منشآت صحّية للعلاج من أمراض مختلفة، وفيها مستخدمون مختصّون بالمعالجة الطبيّة، وفي مقدمتهم المدلّكون (المعالجة الفيزيائية)، والحلاّقون، والحجّامون، وعدد كبير من الخبراء بالشؤون الصحية. وقد أوردت كتب الحسبة مثل كتاب (معالم القربة في أحكام الحسبة) لمحمد بن أحمد القرشي، المعروف بابن الأخّوة (ت 729هـ/1329م)، الكثير من منافع الحمّام الصحية، منها: توسيع المسام واستفراغ الفضلات ومعالجة الإسهال والإمساك، وشفاء الحكّة، والجَرب، والإعياء، وترطيب البدن، وتجويد الهضم، وإنضاج النزلات، والزكام، وشفاء الحمّى بمختلف أنواعها[6].

واشتهرت بعض الحمّامات في القدس بفائدة مياهها، وقدرتها على علاج الأمراض، ومنها حمّام الشفاء، الذي ارتبط في المعتقدات الشعبية بإسم النبي أيوب عليه السلام، ويُقال انه استحمّ في هذا الحمّام وشُفيَّ من أمراضه، وأنه كان يستّحم في غرفة معيّنة في الحمّام تُدعى (خلوة أيوب)[7].

أما حمّام السيدة مريم (الأسباط) فكان هناك اعتقاد شائع بقدرة مائه على شفاء الأمراض، وكانت النساء العقيمات يرتدنه على أمل الإنجاب، وكانت تنذر فيه النذور وتُضاء فيه الشموع والزيت، وتوضع فيه الزهور، ولا شكّ بأن ارتباطه بإسم السيدة مريم العذراء ضَمِنَ له قدرة على الاستمرار والبقاء لفترة طويلة من الزمن[8].

الأطباء المقادسة:

نلاحظ من تراجم الأطباء في العصر المملوكي أنهم لم يقتصروا على دراسة الطب فقط، بل تلقّوا جملة من العلوم، ومنها: الحديث والفقه والتفسير والبلاغة والهيئة والفلسفة (الحكمة).

ويظهر أيضاً أن اكتساب التدريب العملي قبل ممارسة مهنة الطب لم يكن متوفراً بل كان محدوداً. وأكثرية الأطباء المؤلفين كانوا لا يقتصرون في الكتابة عن الطب، بل يخوضون غمار التأليف في كثير من العلوم، فالعزّ بن جماعة المقدسي ألّف في أصول الفقه وشرح كتب الحديث، كما كتب الفقيه الحنبلي ابن قُدامة المقدسي (ت 744هـ / 1343م) كتاباً هو [الرّد على شفاء الأسقام].

ولو تفحّصنا غالبية المؤلفات الطبّية في تلك الفترة نلاحظ اختلاط الدين بعلم الصحة والطب، لأن المؤلفين كانوا في الأساس من علماء الدين الذين كتبوا في الطب، ومن الطبيعي أن تتضمّن مؤلفاتهم الكثير من الدين والقليل من الطب، فالفقيه والمؤرّخ الشهير ابن حجر العسقلاني (الفلسطيني الأصل المصري المنشأ) (ت852هـ/1449م) والذي أصبح قاضي القضاة، له عشرات الكتب في مختلف المواضيع ومنها: بذل الماعون في فضل الطاعون، جَمَعَ فيه ما ذُكر في الطاعون من أقوال وأحاديث نبوية وشرحها، ثمَّ رتّب كتابه على خمسة أبواب، وهي:

1- في بدء الطاعون وفيه أربعة فصول.

2- في التعريف به وفيه تسعة فصول.

3- في بيان أن الطاعون شهادة للمسلمين وفيه عشرة فصول.

4- في حكم البلد الذي يقع فيه الطاعون وفيه أربعة فصول.

5- في معرفة ما يشرع فعله في الطاعون بعد وقوعه وفيه خمسة فصول.

وتوجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة الشرفية الوقفية بحلب، تحت رقم (1257)[9].

والواقع أن الطاعون كان من الأوبئة التي وقف الجميع في كافة العصور عاجزين عن مكافحته، أو وضع حدٍّ له بعد أن أهلك الحرث والنسل.

فقد اجتاح الوباء القدس حتى عمَّ البلاد عام (881هـ / 1476م) كما يذكر مجير الدين الحنبلي: [دخلَ الوباء بالطاعون حتى عَمَّ جميع المملكة. وكان دخوله بيت المقدس في أوائل رجب... ولم يزل الطاعون في القدس إلى مستّهل ربيع / 882/، وأفنى خلقاً من الشباب والنساء وأهل الذمَّة....][10].

ويصف ابن حجر العسقلاني وباء الطاعون الذي اجتاح حلب عام (849هـ / 1445م) [وهذا الذي جلب لأهل حلب الانزعاج استرسل جنانه أو انساب، وسُمّي طاعون الأنساب، وهو أعظم طاعون وقع في الإسلام، وعندي أن الموت الذي أنذر به نبيّنا عليه أفضل الصلاة والسلام، فلو رأيت الأعيان وهم يطالعون في كتب الطب والغوامض ويكثرون في العلاج من أكل النواشف الحوامض، قد تُنغصّ عيشهم والهنا... وقد لاطف كلٌ منهم مزاجه وعدّل، وبخّروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسُعْد والصَندل، وتختّموا بالياقوت، وجعلوا البقل والخلّ والصحنة من جملة الأدُم والقوت، وأقلّوا من الفواكه، وقرّبوا إليهم الأترج وما شابهه، وحلب والله يكفي شرّها أرض مشقّة... فلو شاهدت كثرة النعوش وحَمَلة الموتى، وسمعت بكل قطر من حلب نعياً وصوتاً لولّيت منهم فراراً، وأبيت منهم قراراً، ولقد كثرت فيها أرزاق الجنايزية فلا رزقوا، وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا، فلا عاشوا ولا عرقوا فهم يلهون ويلعبون، ويتقاعدون على الزبون، اسوّدت الشهباء في عينيّ من وهم وغشّ، كادوا بنو أعّش أن يلحقوا ببنات نعش، فنستغفر الله من هوى النفس فهذا بعض عقابه، ونعوذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقابه][11].

ومن الأطباء ذوي الأصول المقدسية،أخوان لم يمارسا الطب في موطنهم القدس، وإنما مارساه واشتهرا به في مصر.

الأول: إسماعيل بن إبراهيم بن سليمان المقدسي ثم المصري، عماد الدين، اعتنى بالطب فمهر به، وأخذه عن عماد الدين النابلسي وغيره، وكان حسن المعالجة، وسمع من العزّ الحرّاني والمجد بن العديم والقطب القسطلاني وغيرهم. وتوفي في جمادي الآخرة (731هـ / 1330م)[12].

والثاني: محمد بن إبراهيم بن سليمان المقدسي، صلاح الدين، المعروف بابن البرهان الجرائحي (ت 743هـ / 1342م)، طبيب، فلكي، متكلّم، كيميائي.

نشأ في القاهرة في كنف والده الجرائحي (الجرّاح) وأقرأه القرآن الكريم، وبحكم استعداده الفطري والخُلُقي لتلقّي العلوم والمعارف فقد درس على أساتذة وعلماء القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، فسمع الحديث من

علي بن عيسى القيّم، وسمع قصيدة «نهج البُردة» من ناظمها محمد بن سعيد البوصيري، وقرأ الطب على العماد البابلتي، ثم على الشيخ العلاّمة علاء الدين بن النفيس.

اهتم بعلم النجوم والبحث في طبائع الكواكب وأسرارها وتأثيرها على أفعال الإنسان وتصرفاته وصحته، ودرس علم الكيمياء وله تجربة باستخراج الفضة. ولازم الإمام العالم العلاّمة شمس الدين الأصفهاني (ت749هـ/1348م) وقرأ عليه كتاب الحكمة وكتاب الشفاء لابن سينا واستمع إلى شرحه، كما قرأ العربية على العلاّمة ابن النحاس.

اتّصف محمد صلاح الدين بولَعه الشديد في الإقبال على علوم الأوائل منذ يفاعته، وأخذ من كل علم بطرف، ووصفه معاصره وصديقه المؤرخ ابن فضل الله العمري (ت749هـ/ 1348م) قائلاً: « نظر في علوم الأوائل ووجهه ما تلثّم بعذاره، ولا بعد عهده بزمان إعذاره، ففتح أطباق تلك النواويس حتى استلّ علومها وسأل عليمها، ونقل إلى حفظه خبايا أسرارها، وخفايا أسفارها »[13]. حاز محمد صلاح الدين على ذخيرة علمية وثقافية عميقة، أكسبته قوة واعتداداً بنفسه، لكنه لم يحسن توظيفها في بلده مصر، وزاد من ذلك عدم زواجه وشعوره بالعزلة، وسرت عنه أقاويل غير مؤكدة بأنه عنّين لا حاجة له بالنساء.

في ذروة حياته المهنية الطبية أصبح من جملة أطباء الملك الناصر محمد بن قلاوون (ت 741هـ / 1341م)، وكان يشاركه طبيبان يهوديان، هما: السديد الدمياطي، وفرج الله ابن صغير (ت بعد 733هـ / 1332م)، بالإضافة إلى رئيس الأطباء جمال الدين بن المغربي، والذي كان يشاركهم ذات الديانة. وعبثاً حاول محمد صلاح الدين التعرّض لهذه الناحية، ولكن حزم وصلابة السلطان محمد بن قلاوون كانا يمنعانه من ذلك، فقد كان يرى بأن الكفاءة والإخلاص في الخدمة فوق كل اعتبار، وكان ذلك مظهراً رائعاً من مظاهر التسامح في الحضارة الإسلامية.

كان محمد صلاح الدين يرى في نفسه الغضاضة لتقدّم ابن المغربي عليه في رئاسة الطب، ويشتكيّ إلى أصحابه، حتى سأل السلطان الاستقالة والإعفاء من الخدمة في الدور السلطانية، وكان سفيره في هذا الطلب صديقه المؤرخ ابن فضل الله العمري، وردّ عليه السلطان بلهجة حكيمة وقاسية، قائلاً: « نحن نعرف فضيلتك وكبر قدرك، وإنك أفضل من إبراهيم بن المغربي وأكبر، ولكن إبراهيم له علينا حق الخدمة من وقت كنا في الكرك، وهو صاحبنا ما هو طبيب عندنا»[14].

ومن الواضح أن بلاط السلطان محمد بن قلاوون كان زاخراً بالمتناقضات والنزاعات، كصورة مصغّرة عن المجتمع المصري المنفتح، وكأي مجتمع إنساني متحضّر، وكان سر نجاح السلطان ووليّ الأمر هو قدرته على ضبط النزاعات المتناقضة وتوجيهها، وأن يكون متعالياً عليها لا طرفاً فيها.

ولكن محمد صلاح الدين لم تنته هواجسه، وبدأ يشكو إلى صديقه المؤرّخ عن تعرّضه لمحاولات اغتيال بالسم يخطّط لها ابن المغربي، وعبثّاً حاول صديقه المؤرّخ تبديد أوهامه، وأن خصمه المزعوم يتمتّع بأخلاق طيّبة ومكانة رفيعة من السلطان لا يخشى معها أي منافس، وقد روي بأنه جلس يوماً في حانوت عطار من أصدقائه، فناوله شراباً، فلما شربه أحسّ بالسم يسري في عروقه، فأسرع إلى داره وتناول ترياقاً مضاداً للسموم فزال عنه الضرر، هذه الحادثة زادت من شكوكه وقلقه، فاهتدى إلى حل مناسب، فتزوج في السنوات الأخيرة من عمره،

أخت منافسه ابن المغربي وأظهر الصفاء وباطنه على كدره، لظنّه بأنه سيؤمن الشرور بذلك، وقد توفي عنها ولم يرزق بولد.

انكبّ محمد صلاح الدين على العلم والتحصيل، ولكن علومه الطبّية راوحت في الإطار النظري، ولم يحسن كثيراً الطب العملي التطبيقي، وزادت حدّة طباعه الأمور سوءاً، فقد كان لا يتمتع بالصبر الكافي المطلوب من الطبيب المعالج، ويعوّض ذلك بذمّ أطباء زمنه وعلى الأخص زميليه في خدمة السلطان « السديد الدمياطي » و«فرج الله بن صغير» ويطلق لسانه في معايبهما ويرميهما بالجهل وقلّة تحصيل العلوم مثله، وهذا القول له ما يبرّره، فالطبيب فرج الله بن صغير لم يتقن شيئاً سوى الطب، ولم يقرأ أو يهتم بأيّ علم آخر، كما روي عنه[15]، ولكنه وإن كان لم يجاره في العلوم والمعارف، فإن أسلوبه العملي كان مختلفاً في التعامل مع المرضى وذوي العلّل، فقد كان واسع الصدر، لطيف المحيّا، يتحمّل نزوات المرضى مما أكسبه شهرة واسعة ومكانة عظيمة وحرص الجميع بما فيهم السلطان والأمراء والكبراء على التعامل معه واستشارته، ويصله من وراء ذلك الهبات والصلات.

ومع ذلك فإن محمد صلاح الدين كان واسع النعمة كثير المال، فقد مات أخوه وورث عنه مالاً طائلاً، استثمره في التجارة ونجح نجاحاً ملحوظاً، وكان له متاجر يستثمرها موزّعة في أنحاء مصر وسائر بلاد الصعيد، أما صديقه المؤرّخ ابن فضل الله العمري فكان متناقض المشاعر حياله، وبالغ أحياناً لشدة قربه منه في تقديم صورة قاسية مبالغة لحياته الشخصية، فيروي عنه حكايات عجيبة قائلاً: «كان رجلاً مسّيكاً مفرط البخل، مقتّراً على نفسه، مضيّقاً عليها مع عظيم القدرة والإمكان، وكان لا يأكل إلا من الظهر إلى الظهر، أسوأ أكل ويلبس أردأ ملبوس، ويركب حمير الكراء»[16]، أي أنه لم يقتن دابّة للركوب، وكانت علامة من علامات الغنى والوجاهة.

ولم ينعكس ذلك على تصرفاته العامة التي كانت توحي بالاحترام والثقة، فكان يعرف قدر نفسه وله وجاهة عند الأمراء والوزراء والكبراء والحكام، معظّماً في الصدور ويشار إليه بالأنامل، صحب الأمير (طقزدمر) – نائب قائد الجيش في سلطنة محمد بن قلاوون – إلى بلاد الصعيد، لم يتناول خلالها سوى لبن الضأن في تلك الرحلة الطويلة.

سافر محمد صلاح الدين إلى بلاد اليمن في مطلع حياته المهنية، واتصل بالملك المؤيد داوود بن يوسف وخدمه مدة لاقى فيها نجاحاً وقبولاً وكسب مالاً طائلاً كان أساس ثروته الطائلة فيما بعد، عاد بعدها إلى مصر، ولكن علاقته الطيبة بالملك المؤيد لم تنقطع، فكان سفيره في القاهرة، تأتيه الرسائل إليه مع الصلات والهدايا، لعرضها على السلطان المملوكي، كما يأمره بقضاء حوائجه، وتتضمّن طلب كتب ومصادر طبّية، وعقاقير مصرية ومغربية غير متوفرة باليمن، وكان يقوم بتلك المهمّة خير قيام، وفي إحدى الرسائل وصفه الملك المؤيد، قائلاً: «كتابنا هذا إلى وليّنا العبد الشكور، الحكيم، الجليل، الفاضل، المعتمد، الثقة، صلاح الدين معتمد الملوك والسلاطين»[17].

لم يصنّف محمد صلاح الدين أي مصنّف، ولم يهتم بتدريس أحد من بعده ليخلفه، وأدرك قبل وفاته بمدة قريبة بأن ما جمعه من أموال جمّة ستؤول إلى السلطان، لأن ليس لديه وريث يرثه من بعده، وكان واقعياً مع

نفسه ومع الآخرين، فبادر في لفتة نادرة لم تحصل لأحد بتقديم تصريح عن مقدار أمواله وممتلكاته الخاصة لكي تؤول إلى السلطان من بعده، وهكذا حصل.

ومضى ليترك سيرته المليئة بمحطات الفشل والنجاح، والجدّ والتحصيل والسفر في طلب العلم والرزق.

محمد بن حسن بن أحمد بن محمد الشمس، أبو عبد الله الكردي ثم المقدسي:

نزيل مكّة، ويعرف بابن الكردية، ولد عام (781هـ/ 1379م) ببلاد الأكراد وقَدِمَ مع أبويه وهو ابن سبع سنوات لبيت المقدس، وتلقّى فيها العلوم الدينية على أساتذتها وشيوخها. له معرفة بالطب، ومن الواضح أنه مارس المهنة الطبية كعمل ثانوي، وليس له أية مؤلفات طبّية.

بعد وفاة والده، رحل إلى مكّة مع أمه فاستقرَّ بها، وصار يتردّد منها إلى بيت المقدس. توفي عام (843هـ/1439م)[18].

أحمد بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عوض المقدسي الأصل، الصالحي، العطار، شهاب الدين، ويعرف بابن المحتسب.

ولدّ في ذي الحجة سنة (694هـ/1294م)، وسمع من شيوخ عصره، وورث مهنة الطب والعطارة من والده العطار المعروف بابن رقيّة، كان يحفظ طرفاً، ويحفظ حكايات ونوادر، مما جعل دكان العطارة التي يديرها مقصد الجميع.

توفي عام (772هـ / 1370م)[19].

جمال الدين يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي، الحنبلي، الدمشقي، المعروف بابن المبرّد (ت909 هـ/1503 م).

علاّمة متفنّن، من فقهاء الحنابلة، من أصل مقدسي، لكنه نشأ في دمشق، ومن أهل الصالحية.

له مؤلفات كثيرة، من ضمنها مجموع طبي كتبه بخط يده وتوجد نسخته المخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم (3156)[20]. ويحتوي الكتاب على وصفات طبيّة مع فصل فيما يقوّي الأعضاء الأربعة الرئيسة: القلب والدماغ والكبد والمعدة يقع في ست ورقات.

يتبعه (الإتقان في أدوية اللثة واللسان)، ويحتوي وصفات فيما ينفع من وجع الأسنان واللثة، وفيما يقطع القيء، ويتألف من عشر أوراق يتبعه كتاب (الفنون في أدوية العيون) ويحوي علاجات لأمراض العيون، ويتألف من عشر أوراق أيضاً.

يتبعه (الحّول على معرفة أدوية البول)، ويحتوي وصفات وفصلاً في الأدوية المذيبة للحصى، وحرقة البول، ويتألف من عشر أوراق.

يتبعه (دواء المكترب لعضّة الكَلب الكَلِب)، ويتألف من ست أوراق.

يتبعه (هداية الأخوان لمعرفة أدوية الآذان) ويحتوي على فصل لطرد الحشرات، ويتألف من /18/ ورقة.

يتبعه (الإتقان لأدوية اليرقان)، ويحتوي على /16/ ورقة، وفصل فيما ينفع من داء الثعلب.

يتبعه (منافع المفردات)، في ثلاث ورقات مرتّبة على حروف الهجاء، وتتضمن سرداً للأعشاب الطبّية.

وأخيراً كتاب (النصيحة المسموعة في أدوية العلَقة المبلوعة) مخروم الآخر، ويحتوي على وصايا طبّية وأقوال حِكمية وأبيات شعرية منها:

إن الطبيـــبَ لـــه معرفـــةٌ ما دام في عمرِ الإنسان تأخيرُ

حتى إذا انقضَت في الدهر مدّتهُ حارَ الطبيبُ وخانتـه العقـاقيرُ

وفصول المخطوط كلها بقلم يوسف بن عبد الهادي كتبها بخط مستعجل وغير مقروء في كثير من المواضع، ويبدو أن الكتاب كان مسوّدة أوليّة كُتِبَتْ على عَجَل، ولم تُتَح الفرصة بعد ذلك لنسخ الكتاب بشكل واضح ومقروء.

وفي كتاب طبّي آخر ليوسف بن عبد الهادي، ويحمل الرقم (3165) في المكتبة الظاهرية، تناول فيه المؤلف بعضاً من المواضيع الطبّية، وهي:

- **كمال الإصغاء لمعرفة أدوية الأمعاء:**

تحوي الرسالة مركبّات صيدلانية، ووصفات لمعالجة تقرّح الأمعاء وسحجها في ثمان ورقات.

- **هدية الإشراف لمعرفة ما يقطع الرعاف:**

يحتوي على وصفات لقطع رُعاف الأنف، في /12/ ورقة، وفرغ المؤلف من كتابتها في 19/ ربيع الآخر سنة 901هـ.

- العهدة لأدوية المعدة، يحتوي على وصفات علاجية في عشرين ورقة.
- إتمام النَوال في أدوية الطحال، يحتوي على وصفات ومعالجات لا تمتّ بصلة إلى عنوان الكتاب.
- الأدوية المفردة لعِلَل المقعدة: يحوي معالجات للبواسير في ثمان ورقات.
- الأدوية في أدوية الحلق: يحوي وصفات في ثمان ورقات أيضاً.
- إرشاد المعتمد إلى أدوية الكبد: يحوي علاجات لمداواة السرطان.
- الأدوية الوافدة على الحمّى الباردة: ويقع في ثلاث ورقات.
- بُلغة الآمال بأدوية قطع السعال: ويقع في سبع ورقات.
- تعريف المجروح ما يدمل القروح:

وبه ينتهي المخطوط في الورقة /112/.

كان يوسف بن عبد الهادي قد درس على شيوخ عصره، مثل: علاء الدين المرداوي، وبرهان الدين بن مفلح، وبرهان الدين الزرعي، وابن العراقي، والشهاب الحجازي، والبرهان البعلي، وقاسم بن قطلوبغا وغيرهم، كان متفرّغاً للعلم، دائم الاشتغال بالتصنيف والتأليف حتى بلغ إنتاجه العلمي أربع مئة مصنّف ما بين كتاب ورسالة ومقالة في مختلف العلوم والفنون من تفسير وسيرةٍ نبوية وتوحيد وجَدَل وتصوّف ولُغة ونَحو وتصريف ومَعانٍ وبَيانٍ وجُغرافية وتراجم وتاريخ وطبٍ بشري وطبِ بيطري، وغير ذلك.

ينتمي يوسف بن عبد الهادي إلى بني قدامة المقادسة الذين هاجروا إلى الشام هَرَباً من الاضطهاد الصليبي، واستقرّوا بدمشق في حي الصالحية، وهو شخصية فلسطينية الأصل كان لها شأن كبير في الحفاظ على الحركة العلمية في بلاد الشام، فعمل وصنّف في مختلف فروع المعرفة والعلوم.

ولو استعرضنا سيرة حياته نلاحظ بأنهُ لم يرد في سيرته أبداً أنه كان طبيباً، أو مارس صناعة الطب، وإنما هو مُصنّف في الطب، يَستخرج الوصفات الطبية والعلاجات من المصادر الطبيّة العديدة التي تحويها مكتبته، ويدوّنها، ومن الطبيعي أن يضيف إليها ما يتناقله العطّارون والأطباء وأبناء عصره من وصفات طبية ومعالجات، وبحكم عدم اختصاصه الطبي فقد يشوب رسائله الطبية سوء الترتيب أو الدّقة، وقد دفعه فراغ الساحة من التأليف الطبي، أو انحسار التأليف الطبي عامة ابتداءً من القرن التاسع الهجري وربما قبل. بالإضافة إلى انعدام الاختصاص الطبي، فلم يعد مطلوباً أن يكون المؤلف أو المصنّف طبيباً، أو مارس الطب حتى يخوض غِمار التأليف الطبي.

كما تحوي المكتبة الظاهرية بدمشق مؤلفات طبية أخرى ليوسف بن عبد الهادي المقدسي، وهي:

- المشتبه في الطب:

يقول المؤلف في المقدمة بعد البسملة: [فإني رأيت جماعة من أطباء زماننا، لا معرفة لهم بالعلوم، يصفون أشياء كثيرة لاسيّما الغريبة، للاشتباه فأحببت أن أبيّن المشتَبه من ذلك، ورتّبته على حروف المعجم].

وقد رتّب المؤلف رسالته على الحروف الهجائية مبتدئاً بحرف الهمزة، فبيّن الفرق بين (الاستسقا والاستشفا) الأول عِلَّة الجنب والثاني من الشفاء وهو البرد، وقد أنهى رسالته بحرف الياء فقد قارن بين يخضب، ويخصب، وبين الينق والبنق.

والرسالة تتألف من ثلاث أوراق، وتحمل الرقم (3216).

- كتاب في الأدوية:

ويتألف من مجموعة من النباتات والحيوانات والمعادن ذات التأثير الدوائي، مرتّبة على حروف المعجم، وفي آخره مجموعة من السفوفات والمعاجين والحبوب والمطبوخات...

والكتاب يجمع بين الوصفات الطبية والفقه والحديث، كتبه المؤلف بخط مستعجل مُتَداخل تصعب قراءته، وهو غير منقوط في أكثر الأحيان، وكتبه كما ذَكر في نهاية المجموع عام (902هـ) بصالحية دمشق المحروسة بمنزله في السهم الأعلى (محلّة تقع في الجسر الأبيض)[21].

- دخول الحمّام وقوانينه، أو عدّة الملمّات في تعداد الحمّامات:

يقتبس فيه قول ابن عساكر الدمشقي الذي ذكر أن بدمشق وضواحيها (57) حمّاماً، بالإضافة لواحد في الربوة، وآخرين بالغوطة والقابون. ويذكر المؤلف يوسف بن عبد الهادي مئة حمّام، منها: حمّام الكتّاني، وعز الدين، والبيمارستان، والعدل، ويصفها وصفاً ضافياً، فيذكر كيف يُبنى الحمّام وشرائطه ووصول الماء إليه، ودخوله للرجال والنساء والوقت لكل منهم. ومنافعه ومضاره وتناول الأكل والشرب فيه، مع وصف للأجرنة والكيول (الأكيال) والمغاسل الموجودة فيه، والأرض والبلاط والبلاليع، والأجرة المستوفاة وفيمن مَدَحه من السَلَف وفي آداب الحمّام عامة.

يقع في (102) ورقة، تحت رقم (4535)[22].

طب الفقراء، والجَمع لهم بين الأسرار الإلهية والأدوية الطبّية:

يقول المؤلف في المقدمة: [وبعد فلما رأيت الأغنياء قد قدَرت بمالها على العيشة اللذيذة والمآكل الطيّبة كثرت في أبدانهم العِلّل والأدواء].

ويتابع هذا التعليل اللطيف، قائلاً: [وبما أن الفقراء يعجزون عن شراء أطايب الطعام، ويكتفون من المآكل باليسير الزهيد كاللفت والجزَر والدبس والملح والصعتر وأشباه ذلك، ولا يُدخلون طَعاماً على طعام، قَلَّت عِلّل أبدانهم في حين كَثرت أمراض الأغنياء بسبب التخمَة أو كثرة ألوان الطعام والشراب].

وهذه إشارة جديدة بالتقدير لقوانين حِفظ الصحة.

ثم يُضيف: [كذلك الاستفراغ يُفسد أبدان الأغنياء ويفنيها ويكسبها العِلّل، إنما إذا حَصَلَ الداء للفقير فإنه يَحتاج إلى أدوية متيسّرة رخيصة].

يشتمل الكتاب على مقدمة وعشرة فصول، تحتوي ذكر نباتاتٍ طبية، وأدويةٍ مُتخذّةٍ من أعضاء الحيوان، واستعمال الأكحال والاطلية بواسطة الجرايحية (الجرّاحين). وفي مسألة هامة جديرة بالتنويه، يميّز المؤلف بين العطّارين الذين يبيعون العُطور والبذورات، وبين الصيادلة المتعلّمين والمتمرّنين على طرق تركيب الأدوية وحِفظها وبَيعها، وهي ملاحظة حكيمة من القرن العاشر الهجري، كما يحبّذ المؤلف المعالجة بالغذاء بدلاً من الدواء مع توصيات صحيّة ومهنية للطبيب المعالج.

يقع الكتاب في /200/ ورقة، تحت رقم (3155)[23].

وفي مجال الطب البيطري وعلم الحيوان، صنّف يوسف بن عبد الهادي:

– **الإغراب في أحكام الكلاب:**

وهو في خمسين باباً، ويتعلّق بالكلب من طَهارةٍ ونَجاسةٍ وصيدٍ ومسائل متنوّعة أخرى.

توجد النسخة المحفوظة في المكتبة الظاهرية، تحت رقم (3186) عام[24].

– **رسالةُ لَقط السنبل في أخبار البُلبُل:**

وتبحث في الطيور وخاصّة البلابل التي تكثر في جنّات دمشق، وخاصة غوطتها[25].

وفي باب تشريح الجسم الإنساني، صنّف يوسف بن عبد الهادي كتاب البيان البديع في خلق الإنسان:

يذكر فيه تركيب البدَن، وما يتعلّق به من الأحكام الفقهية، والفوائد اللغوية، والأمور الطبيعية، وعجائب تركيبه في عشرة أبواب:

عنصر الإنسان ومبدؤه قبل خروجه إلى الوجود وخَلقِه من الصلصال وأطواره بعدَ الولادة، ويوصي بالعناية بطعام الأطفال، وان يغذّوا دون حدّ الشَبع ليجود هضمهم وتعتدل أخلاطهم. وقرّر آراء رشيدة في مجال تربية الطفل وعلم النفس جديرة بالتقدير والاعتبار، وتدّل على تفكير صائب، بحيث إذا زاد نوم الطفل فلا يُستعمَل له ما يُقلّله، وإذا قَلَّ نومه فلا يُستعمل له ما يُكثره، وإذا قَلَّ رَضاعُه فلا يكثَر عليهِ أو يُلَحُّ في مزيد من الرضاعة، وإذا بكى فلا يُقَلَّل بُكاؤُه ولا يُكره مِنهُ ذلك.

ثم يذكر المؤلف أعضاء البدَن ومنافعها وصِفاتها، وأفضليةَ خَلقِ الإنسان على غيره من المخلوقات، وما يَتَشارك به مع الحيوانات، وما ينفرد به، وأن جميع الحيوانات لأجله ولخدمته وأحواله بعد الموت.

ثم يتحوّل إلى بحث ديني حول الجنّة والنار والثواب والعقاب وأحوال تلك الديار، مقتبساً من القرآن الكريم والإسناد وكلام الفقهاء والأئمّة، وما روي عن الصحابة الكرام، ويبرز الجانب الفقهي في تلك المناقشة على الجانب الطبي[26].

– محمد بن أحمد المقدسي، المعروف بابن قُدامَة (ت724هـ/1323م):

ألفّ كتاب (الرّد على شفاء الأسقام)، وهو من الصحة العامة ومنه نسخة في خزانة فيض الله – مكتبة ملّت – استانبول رقم(1320)[27].

وأخيراً توجَد وَصفة طبيّة طريفة تعود للعصر المملوكي، مكتوبة على الزاوية العليا لورقة من أوراق وثائق الحَرَم القدسي، عُثِر عليها في المتحف الإسلامي بالقدس عام (1974م)، وتتناول عِلاجاً لمن به سُعال أن يأكل صَفار البيض مع الثوم والسمن، أو يأكل التين بالزيت، ومن اعتراه إسهال أن يُقبل على نبات الحمّاض وعلى الصمغ العربي والطباشير والكَمّون وغيره، ونصّ الوثيقة:

1– ينبغي لمن به سُعال أن يأكل محاح البيض مع الثوم.

2– والسمن أو يأكل التين بالزيت فإنه يُنقّي الصدر.

3– ويُنضج الرطوبات ويجلو البلغم ويُسخن الكِلا.

4– و ولمن اعتراه إسهال تَغوّط يأخذ جزو.

5– ... مسك جزو ومن الطباشير جزو وإن لم يكن.

6– يوجد طباشير فَبدله طين أرَمني مُحَمَّص.

7– ويُسقى منها مِثقال ما طُبِخَ فيه كَمّون أول أو ما.

8– نافعٌ لهذا الإسهال[28].

ويبدو أن مَرضي الإسهال والسُعال قد انتشرا في تلك الأثناء فدوَّنت هذه الوَصفة في وثيقة مملوكية (رقم 182) لتكون سَهلة مُتَيسّرة لكلّ من أُصيبَ بهما.

شملت ظاهرة هجرة العلماء معظم أعلام الأطباء المقادسة، وصَفَد فاستقرّوا في القاهرة ودمشق، أمثال:

– يوسف بن هلال أبو الفضائل الصَفدي (ت696هـ/1296م).

– أحمد بن يوسف بن هلال الصَفدي (ت737هـ/1337م).

– علاء الدين الكحّال الصَفدي (ت720هـ/1320م).

– محمد بن عبد الله الصَفدي، أمين الدين (ت887هـ/1482م).

– علي بن محمد بن إبراهيم الصَفدي (ت870هـ/1465م).

– محمد بن عيسى بن إبراهيم بن حامد الصَفدي (ت887هـ/1482م) [29].

في القرن الثامن الهجري، استقرّ في القدس بعض الأطباء الذين لم يَبْلِغوا من الشُهرة مَبلغَ الأطباء الآنفي الذكر، ويُمكن أن نَتَعرّف على بعض أسماء الأطباء من خلال وثائق الحرَم القدسي الشريف، ففي الوثيقة رقم (27) المؤرّخة عام (796هـ/1393م) يطلب أحمد اليغموري (نائب السلطنة المعظّمة بالقدس الشريف) من قاضي القدس (شرف الدين عيسى بن غانم) أن يَنُدب شُهوداً لمعاينة حالَة مجروحٍ من أهل قرية (تقوع) من أعمال

القدس، فأمر القاضي ثلاثة شهود بالتوّجه للكشف عن حالة الجريح (نصير بن نصر الله بن محمد).. و صَحِبَهم جَرائحي من أرباب الخبرة هو (الحاج موسى بن محمد) الذي وصَفَ حالة الجريح، وذَكَرَ أن به ضَربةُ سيف في مُقدِّمة دِماغه.. مِما يَدُّل على أن القاضي كان يتّبع الإجراءات القانونية الصحيحة ويُرسل الطبيب للكشف عن الجرحى ووصف حالتهم لاستكمال مِلَفّ الدعوى، وهو ما يَتقاطعُ مع عمل الشرطة والنيابة العامة والطب الشرعي في الوقت الحاضر.

ومن الطبيعي أن يكون أطباء من الديانات الأخرى يُعالجون أبناء طوائفهم، إلى جانب الأطباء المسلمين. فيذكر الرحّالة اليهودي اسحق هيلو عام (734هـ/1333م) أن بعض بَني جِلدته في القدس كانوا يحترفون الطب[30].

وتُفيد بعض المراجع عن وجود أطباء لدى طائفة الرهبان الفرنسيسكان في ديرهم في جَبَل صهيون، حيث يَقُومون بخدمة الحجّاج المسيحيين فيأخذون المرضى منهم إلى مُستشفى داخلِ ديرهم.

كما كان أطباء طائفة الفرنسيسكان يذهبون من ديرهم في جبل صهيون للكشف على المرضى وعيادتهم، وتزويدهم بالأدوية، وكان لدى أبناء الطوائف المسيحية الأخرى أطباء يُعالجون المرضى داخل مؤسساتهم الدينية وبخاصة في الأديرة[31].

هوامش الفصل الثامن

(1) العسلي: مقدمة في تاريخ الطب – ص 147.

(2) ذات المصدر – ص 146.

(3) العسلي: من آثارنا في بيت المقدس – ص 147 – 157.

(4) العسلي: مقدمة في تاريخ الطب – ص 131.

(5) ذات المصدر.

(6) ابن الأخوّة – معالم القربة في معالم الحسبة – ص 154.

(7) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – ص 148.

(8) العسلي: من آثارنا في بيت المقدس – ص 158.

(9) قطاية: سلمان – مخطوطات الطب والصيدلة – ص 248 – 255.

(10) الحنبلي: مجيد الدين – الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل – 2 / 218.

(11) ابن حجر العسقلاني – بذل الماعون في فضل الطاعون – مخطوط المكتبة الشرفية الوقفية – رقم 1257.

(12) عيسى: أحمد – معجم الأطباء – ص 134، نقلاً عن الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني – 1 / 363

(13) ابن فضل الله العمري – مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – 9 /282 – 283.

(14) ذات المصدر – 9 / 621.

(15) ذات المصدر – 9 / 624.

(16) ذات المصدر – 9 / 286.

(17 ذات المصدر – 9 / 288.

(18) عيسى: أحمد – معجم الأطباء – ص 373 . 374.

(19) ابن حجر العسقلاني – الدرر الكامنة – 1 / 275.

(20) حمارنة: سامي خلف – فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ص 493 . 496.

(21 الخيمي: صلاح محمد – فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ص 204 – 205.

(22) حمارنة: سامي خلف – فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ص 395 – 396.

(23) ذات المصدر – ص 392 – 393.

(24) الموسوعة الفلسطينية – ج2، ق3 – ص 398.

(25) ذات المصدر.

(26) حمارنة: سامي خلف – فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ص 393 – 394.

(27) الموسوعة الفلسطينية – ق2، ج3 – ص 395.

(28) العسلي: مقدمة في تاريخ الطب – ص 134.

(29) ذات المصدر – ص 137 – 138.

(30) السيد علي: علي – القدس في العصر المملوكي – ص 151.

(31) ذات المصدر – ص 152.

الفصل التاسع
صناعة الدواء في القدس من خلال موسوعة طبيّة
(الترياق نموذجاً)

من أقدم الأساطير التي تظهر الاهتمام البشري في البحث عن وسيلة للخلود، والبحث عن المعرفة التي تؤدي إلى الهروب من القدر المشترك للإنسان، ألا وهو الموت الذي يلاحق الإنسان في كل لحظة من لحظات عمره، تصادفنا أسطورة (جلجامش) البطل، ملك مدينة (أوروك) بأرض الرافدين، فالبطل (جلجامش) يمثل النموذج الأكثر واقعية لمعضلة الإنسان الفرد في سعيه نحو الحياة، مما أدى بصاحبه إلى الفشل في نهاية المطاف وانتهت حياته نهاية مأساوية، فهو لم يستطع الحصول على نبات الحياة ليضمن الخلود الأبدي. هذه الأسطورة ترمز لسعي الأقدمين في البحث عن أشياء صعبة المنال في سبيل الحصول على (إكسير الحياة)، ذلك الإكسير الذي كانوا يتفانون في البحث عن تركيبه بغية إطالة العمر وإعادة الشباب ومدّ أمد الحياة، ومن خلال هذه التجارب القائمة على مزج الأدوية والعقاقير الطبّية وغير الطبّية ابتكروا نوعاً منه سَمّوه (الترياق) لمعالجة السموم بأنواعها، وكان هناك دافع آخر يدفع القدماء في البحث عن دواء مضادٍ للسموم التي قد يتعرّضون لها بسبب سوء الحظ أو العداوة، وكان للطغاة أسبابهم الخاصة ليخافوا السموم، ولذا كانوا يدأبون جاهدين في البحث عن ترياقات[1].

ومن أقدم الرسائل التي تناولت السموم، هي الرسائل الطبية التي كتبها (أبو للودورس الاسكندري) في أوائل القرن الثالث الميلادي في العصر البطلميوسي الأول، وتتناول إحداها الحيوانات السامة والأخرى العقاقير الضارة أو المميتة، وهي رسائل مفقودة ولكنها كانت المصدر الرئيسي للشاعر نيكاندروس القولوفوني (في آسيا الصغرى) الذي عاش في أواسط القرن الثالث الميلادي، من قصائد حماسية وغزلية، ولكن أغلبها كان تعليمياً في تربية الماشية والنحل أو يحوي إنذارات عن العلاج (مقتبساً عن أبقراط) وعن الثعابين وهكذا، ولكن أهم قصائده هما الاثنتان الوحيدتان الموجودتان كاملتين وهما عن (الترياقات ضد الحيوانات السامة) و (العقاقير المُضادة للسموم). والرسالتان كما يذكر المؤرخ (جورج سارتون) مستمدتان من (أبو للودوروس). وبالإضافة إلى الحيوانات هناك (125) نباتاً مذكورة في القصيدتين، بالإضافة إلى (21) سماً مذكورة في القصيدة الثانية، وهذه الرسائل كانت تحوي قدراً ما من المعلومات الطبية للأطباء وحدهم، ولكن أيضاً لكل شخص متعلم[2].

ويشرح العالم العربي (حنين بن اسحق) المتوفى (264هـ/877 م) السبب الذي دعا القدماء إلى عمل (الترياق) وتركيبه فهو [لما رأوا المضار الشديدة التي تعرض للأبدان من شرب السموم القاتلة وما تضمنها من لسع الهوام ذوات السموم... ورأوا عامة من يبلى بها يهلك ويموت، ففكروا في دواء يحفظ من هذه المضار

ويشفي الذين ابتلوا باللسع والعضّ وشرب السموم فعملوا الترياق وألفوّه... والعلّة الثانية أنه يشفي ويبرئ كثيراً من الأمراض والأوجاع التي تعرض للأبدان][3].

ويوجز الطبيب (ابن سمحون) المتوفى (400هـ/1010م) المسيرة التاريخية للترياق قائلاً: [قد أجمع الفلاسفة المتقدمون والحكماء أن الترياق لا يعادله شيء من الأدوية، ثم أكثروا من تجربته على طول الدهور في الأبدان المتباينة والأسنان المختلفة والأمراض المهلكة، فوجدوه شفاء وحرزاً من السموم، وأنه لم يسق قط منه لديغ أفعى أو حيوان مهلك إلا بدأ ولم يمت... ونحن فقد أكثرنا تجربته في هذه الأمور فرأيناه حقاً لا يخطئ ما ذكروا من فعله][4].

الترياق:

معجون مُركَّب من سبعين مادة ونيّف من أصل نباتي وحيواني ومعدني، كان القدماء يعدّونه شافياً من كل أنواع السموم ويحافظ على الصحة ويعالج أمراضاً كثيرة، أما استخدامه الرئيس فهو دواءٌ نافعٌ من لدغِ الهوامِ والحشراتِ السامةِ والسموم، وهو ما يَمنعُ ميكانيكاً امتصاصَ السمّ من المعدةِ والأمعاءِ، وينطبقُ وصف (الترياق) بأنهُ دواءٌ لأن الدواء بالتعريف [مادةٌ أو مُركَّبٌ يُقدَّمُ على أنه له خواص شافية أو واقية تجاه الأمراض][5].

ويذكر المؤرخ (تقي الدين المقريزي) المتوفى (845هـ/1441م) بأن أولى مهام الخليفة الفاطمي بعيد تنصيبه أن [يسأل عن الترياق، ويأمرهم بتحصيل أصنافه ليستدرك عمله قبل انقطاع الحاصل منه ويؤكّد في ذلك تأكيداً عظيماً][6].

والترياق (لغة) بحسب الطبيب (شمس الدين بن طولون الدمشقي) المتوفى (953هـ/1546م) هو [دُرْيَاق بضم الدال المهملة وسكون الراء المهملة وياء مثناة من تحت وآخره قاف، وقد تبدل داله تاء، ويقال له الفاروق ويلقّب بالهادي وقد يُوصف بالكبير فيقال الترياق الكبير لأنه ليس في الترياقات أكبر منه، وبعضهم يخصّ ذلك بما فيه من لحوم الحيّات، وما كان مجرداً عنها تُسمّيه الترياق الصغير][7].

وفي موضع آخر يَذكرُ ما يلي:

[وقد قال (ابن وهبان) ما يخالفه وهو أنه بكسر التاء، قيل وزنه فِعال بكسر الفاء، وهو رومي مُعرَّب ولا يجوز إبدال التاء دالاً أو طاء مهملتين لتقارب المَخرج، وقيل مأخوذ من الريق والتاء زائدة ووزنه تِفعال بكسرها لما فيه من ريق الحيّات، وهذا يقتضي أن يكون عربياً وهو دواء يتعالجُ به من السموم وغيرها][8].

جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق:

هذه المخطوطة الفريدة تحتوي على (35) باباً أو فصلاً، وانتهى الطبيب [علي بن عبد العظيم الأنصاري] من تصنيفها في (15) محرم عام (669هـ/1270م) ولا ندري بالتحديد كم عاش بعدها، كما لا نعلم أي تفاصيل عن حياته، إذا أغفلتهُ تماماً كتب التراجم والأعلام والطبقات، ويبدو جلياً أنه عاش في القدس كونه حسن الإطلاع على النباتات وأسمائها لهذه المنطقة وما يُجاورها، كما كان يَميلُ إلى صِناعة وتركيب الترياق بنفسه ولا بد أن يكون مُرَكَّبْ الترياق عالِماً بقوى الأدوية النباتية وغيرها المستخدمة في التركيب ومعرفة ماهيّتها وكيفياتها واختيار جيدها من رديئها ومعرفة خواصِّها وكثرة أجناسها وعلم أوقات اختيارها من منابتها، وقد جمع

(الأنصاري) بين الطب والفلسفة ويبدو ذلك جلياً في كتابه (جامع الافتراق) حيث يَذكرُ (حنين بن اسحق) بإنه قد يُنْتَفع من تركيب الترياق فئتين:

[الفيلسوف الحريص على علم تركيب الأدوية، ثم المتطبِّبُ لأنه يهتدي لتركيب هذا الترياق إلى تركيب الأدوية وإذا عرِف بأي قوة تفعل ذلك قُدِّر له أن يُداوي ويُعالِج كما ينبغي][9].

فوائد الترياق

اعتبرَ القدماء أن الترياق يمتاز بخاصّتين:

1- **دوائية:** الشفاء من اللسع والعضّ وشرب السموم، كما يَشفي ويُبرئ كثيراً من الأمراض والأوجاع التي تعرض للأبدان.

2- **الوقائية:** من استعمله قبل وقوع العلّة عليه سَلِم من الوقوع في المرَض فضلاً عن الخطر.

فالترياق باختصار يَحْفَظُ صِحة الإنسان ويُزيل مَرَضه، ويُخَلِصّهُ من هَلاك الأدوية القتّالة وسُموم الحيوانات ذاتَ السموم.

ويذكرُ (الأنصاري) أن الترياق يشفي من (واحد وتسعين) مَرَضاً، منها:

عَضّة الكلب الكلب، لسعُ العقارب والحيّات، اختلاط الذهن، الحُمَّى والصداع المزمن، السموم المشروبة، القولَنج، الصَرَع، الإسهال.

كما يَشرحُ (الأنصاري) في مُقدّمة كتابه (جامع الافتراق) سبب إقدامه على تصنيفه:

[إن أهل عصرنا وزماننا قد قَلَّتْ عنهم الهمم عن الفحص في أسرار العلوم والحكم وخصوصاً علم الطب... وعَدَلوا عن إمعان الفكر في الغوامضِ والأسرار وخصوصاً عن الترياق... فوقعَ فيه الاختلاف فلم يبقَ منه إلا الرسم ودَثر منه إلا الرسم... وعَدَل الناس عنه... وأهُمِلَ على جلالةِ قدّره الترياقُ الأعظم والفاروقُ المُكَرَّم][10].

أصل الترياق التاريخـي:

تُجمِعُ المصادرُ الطبّية القديمة بأن الترياق من أصلٍ يوناني، وقد قام بابتداعه وتركيبه الفيلسوف اليوناني (أندروماخس القديم العهد) ويَعتَبر (الأنصاري) بأن ابتداء ظهوره في زمن (أندروماخس) إلى وفاة (جالينوس) في عام (201م) هو ألف وأربعمائة واثنان وثمانون سنة، فيكون الزمن الذي عاش فيه (أندروماخس) القديم العهد بحدود القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهو زمن ظهور الترياق، وليس من المستبعد أن نجد جذوراً للترياق في الحضارات القديمة الأخرى.

ويشرحُ (الأنصاري) كيف اهتدى القدماء إلى تركيب الترياق من وجوه عِدَّة منها: الأحلام والبخت (الحظ) والاتفاق والفكر العام الموجود في جميع الناس والإلهام والقياس وأخيراً مراقبة الحيوانات في أفعالها، مثل أن (أبقراط) قد استخرج علم الحقنة من طيرٍ في البحرِ يِستكثر من أكل السمك فإذا تَملَّى منه وتأذَّى به، أخذَ من ماءِ البحر في فيّهِ ووضعَ منقارَه في دُبره وَزَجَّه في أمعائِه فيستفرغ ما كان أكلَه، ويَسرِدُ (الأنصاري) روايةً مقبولةً، قائمةً على الاتفاق والمصادفة، تُوضح كيف توصَّل (اندروماخس) إلى اكتشاف فَضائل الترياق وتركيبه، بينما كان مسافراً ببعض الجزر اليونانية فشاهدَ غلاماً قد لدَغه ثعبان، فبادرَ الغلام إلى شجرة غار وأخذ يأكلُ من حَبِّها، ولما استفسر (اندروماخس) عن السببِ، أخبرهُ الغلام بأن حَبّ الغار مُضَادٌ لسموم الحيوانات، وإن

والده يَمزِجُه مع العسل ويَسقيه لمن لَسَعهُ شيء من الحيوان فيبرأ، والتقط (اندروماخس) الفكرة وأخذ يُطبّقها[11]، ويذكر (الأنصاري) قائمة بأسماء الأطباء الفلاسفة اليونانيين الذين تابَعوا الترياق، وطوّره ابتداء من (اندروماخس القديم العهد) ثم (إيراقليدس) ثم (أفلاغورس) ثم (أفرقليس) ثم (فيثاغورث) ثم (مارينوس) ثم (مغنيس الحمصي). واستقر الترياق أخيراً بشكله النهائي بتركيب الطبيب اليوناني المعروف (جالينوس)، والجدير بالذكر أن الترياق عبر رحلته الطويلة قد تَعرَّض لكثيرٍ من الزيادة والتبديل والحذف في أدويته ومقاديرها وأنواعها، فالترياق ابتدأ في عهد (اندروماخس) بمزج حبّ الغار مع العسَل، وبعد تجربته والتأكد من نجاحِه أضاف إليهِ بعض (الجنطيانا، المرّ، القسط) فأصبح يطلق عليه (ترياق الأربع) ثم أضاف إليه (إقليدس) بعض العقاقير النباتية مثل: الزعفران والسليخة والفلفل الأبيض، وغيرها وسَمّاه (الترياق الصغير)، وهكذا قضى الترياق في رحلته الطويلة لكثير من الزيادة والتعديل والحذف حتى استقر في نسخته الأخيرة على يد (جالينوس).

ورد في (لسان العرب) أن الترياق: [فارسي مُعَرَّب وهو يُستعمَل لدفع السُّم من الأدوية والمعاجين، ويُقال (درياق) بالدال أيضاً][12]، ولكن (الأنصاري) يورد رأياً مُخالِفاً لأصل التسمية: [إن كل حيوان ينهش فاسمه في اللغة اليونانية (تريا) والأدوية القتالة تُسَمَى (قا) في لغتهم، ولما كان هذا الدواءُ ينفعُ من الأدوية القتّالة وسموم ذات النهش، اشتق اسمه من ذلك فَسُمّي ترياقي][13].

وللترياق عِدَّة تسميات منها (البادزهر) وهي كلمة فارسية بمعنى مُقاوِمُ السموم[14] و(المثروديطوس)، ويختصرون الكلمة أحياناً فيقال (الطوس) وهو تريَاق منسوب إلى اليوناني (متريدانوس MTHRIDATE) ملك (PONTUS) الذي كرَّس حياتهِ لِدراسة السُموم ورَكَّب ترياقاً زعم أنه يشفي منها، وكان يحتوي على مُفردات عَددها خمسون وظل يستعمل من بعده عَدَّة قرون (15)، ومن ألقاب (الترياق): المُخَلِّص الأكبر والحافظ المفيد للحياة والمُنْقذ، ويقول (الأنصاري):

[المُخَلِّص الأكبر والحافظ المفيد للحياة والمُنْقذ، وهذه الأسماء كلها مُترادِفة على معنى واحد، وهو الغاية المطلوبة منها، وهي الصحَة والسلامة، وقد يختلف الحافظ والمُخَلِّص أن يُراد بالحافظ: ما تقدَّم شُربَهُ فحفظ البدن بما يَرِد عليه من نَهشِ الهوام المهلكة وشرب الأدوية القتّالة وفَساد جوهر الهواء... ويُراد بالمُخَلِّص ما يُستَعمل بعد وقوع أحد هذه في البدن، فيخلِّص البدَن مما وقع فيه][16].

أما (الترياق الفاروق) فهو أكمَل الترياقات وتأثيره أوسَع من تأثير (مثروديطوس) ويحتوي على أقراص الأفاعي والأفيون، وتعظيماً لشأنه سُمِّي (بالفاروق) لأنه (يفرّق بين السموم وطبيعة البدن)[17]، و(ترياق الأربع) يتألف من أربعة أدوية وذكر مؤرخ الأطباء (ابن أبي أصيبعة) أن (أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر) المتوفى (557هـ)، قام بتأليف الترياق السبعيني (ويعني به الترياق الفاروق) واختصره عشارياً واختصره سُباعياً[18].

ولكن (الأنصاري) المتأثر بالطب اليوناني لا يتعرَّض لدور الطب الهندي في هذا المجال، فقد نقل (العباس بن سعيد الجوهري الترجمان) إلى العربية كتاب (شاناق) للحكيم الهندي (CANAKYA) «في السموم والترياق» حوالي عام /825م/ في عهد الخليفة (المأمون العباسي) ويَتمتّع الكتاب بأهمية تاريخية إذ يوضح نماذج لحوادث التسمّم والتحفُّظ منها ومداواتها وطرق دفع مضارها في القرن التاسع الميلادي في بغداد وإيران والهند، وبهذا يوضح تطوّر مفردات الطب وشيوع استعمالها في ذلك العهد وما سبقه[19].

تصنيع الترياق:

نستطيع أن نُقَدِّر الصعوبات التي سيلقاها تحضير دواء كالترياق والذي يتألف بأكثر من سبعين عقاراً، فالمرحلة الأولى من الصعوبات تتمثل في الحصول على هذه العقاقير ومعرفة ذاتيتها وكشف غشِّها وتدليسها وتحضيرها، ثم يقوم الصيدلي بوزن كل عقار على حِدَة ويقوم بسحقه ونخله بقطعة من الحرير الناعم وبعد ذلك يَعْمُد إلى وزن مسحوق كل عقار لتحرير ما نقصَ من وزنه أثناء السحق وأخيراً تُمّزجُ هذه المساحيق مع بعضها قبل تحويلها لمعجون. وإذا علمنا أن (الترياق) يَضُّم ثلاثة أنواع من الأقراص المهيّئة سابقاً، وهي أقراص (الأندروخون) وأقراص (الإشقيل) وأقراص (الأفاعي)، وأن هذه الأقراص الثلاثة يحتاج تحضيرها المعقَّد إلى مُدَّة لا تقل عن تحضير الترياق نفسه، لأمكننا أن نتخيّل طول المدة اللازمة للتحضير وصعوبة العمل واختلاف مواصفات الترياق الناجح[20].

وتتألف مُكوّنات الترياق من أدوية معدنية وحجريّة مثل: الطين والقلقديس، ونباتية. وهذه تكون بأشكال ومظاهر مختلفة: أصول، ثمار، أوراق، أغصان، عُصارات صُمُوغ.

والأدوية اليابسة تُسحَق كلاً على حِدَة نُعماً وتُنْخَل وتُحَرَّر وزنها بعد ذلك.

أما العصارات والصُمُوغ فتنقع بِخَلّ حتى تَنحلّ ثم تُسحق نُعماً، فإذا ماعت وانحلَّت أُلقيت عليها الأدوية اليابسة وإذا عَسُرَ انحلالها وضِعَتْ على نارٍ هادئةٍ في إناءٍ مُضاعَف، ثم تُمزَج هذه الأدوية المحلولة بالعَسل، وتُخَلَط حتى تُغَلّظ.

وطريقة تصنيع الترياق يمكن إجمالها على الشكل التالي:

تُدَقّ الأدوية اليابسة ويُستوفى وزنها مدقوقة منخولة، وتنقع الأصماغ والعُصارات في المطبوخ بعد أن تُرَضَّ وتُؤَلف بعضها إلى بعض بيسير من العسَل، ثم تُسحق حتى تَصير عجينة رطِبة، وتؤخذ الأدوية السائلة مثل: القنة و الميعة السائلة وصمغ البطم ودهن البلسان وتُذاب مع العسل، ثم تُسحق الأقراص (الأندروخون، الإشقيل، الأفاعي)، وتُعجن في العسل ثم يُصَبُّ عليه باقي العَسل، ويُسحق الجميع النهار كله بحجارة مَلساء في الإناء الذي يُعجَن فيه حتى يُصبحَ كتلة متماسكة، ويُرفَع أياماً في الإناء الذي يُعجَن فيه، مع مُراعاة تغطيته بخرقة خفيفة ثم يُخزَّن في أوانٍ فِضَّة أو رَصاص، ولا يُملأ الإناء كُلَّهُ بل إلى الثلثين والثلث الآخر يَبقى فارغاً، ويُسَد رأس الإناء من نوع الإناء، ويُطبَق عليه بماء، وأفضل ما يُستعمل الترياق من ستة أشهر إلى عشر سنين من زمن تحضيره.

امتحان الترياق:

من الطرق التي لَجَأ فيها الأطباء والصيادلة لمعرفة طبائع الأدوية المفردة وقواها الإحراق بالنار أو السحق، وكذلك فَحص رائحتها ولونها وطعمها، كما قام بعضهم بتجربة بعض العقاقير على الحيوانات قبل إعطائها للإنسان، كتجربة الزئبق على القرد والتي تُنسب إلى (الرازي) أو (ابن سينا)[21] ويَشرحُ (الأنصاري) امتحان الترياق نقلاً عن (الرازي) بتجربته على الحيوانات، كأن تُسَلَّط أفعى على كلب أو ديكٍ لتنهشه ثم يُطَبَّق الترياق بشكل موضعي (موضعَ العضة) أو يُسقى منه، فإن عاش الحيوان فالترياق فعّال، كما يَنقل عن (جالينوس) تجربته على [قوم قد حُكِمَ عليهم بالقتل لجرمٍ عظيم فيسقونهم هذا المعجون (الترياق) ثم ينهشونهم الأفاعي][22]، ويُلاحظون التأثيرات الحاصلة على

هؤلاء السجناء التعساء، وتبقى الطريقة الشائعة وهي أن يُسقى أحدهم أدوية مُسهلة مثل (السقمونيا) فإن توقف الإسهال دَلَّ على جودة المادة التي تناولها، والواقع أن زيادة الطلب على العقاقير، وخاصة الهندية المنشأ وقِلَّة وجودها في الأسواق، أدىَّ إلى ارتفاع أثمانها بصورةٍ فاحشةٍ، وكان من النتائج المباشرة لذلك انتشار الغش والتدليس في الأدوية المفردة والمرَكَّبة، وأصبح من المحَّتم على الصيدلي معرفة الطرق المؤدية لامتحانها[23].

مفردات الترياق:

1- أقراص الأندروخون:

مؤلَّف من القسط، الأسارون، الأقحوان، الأذُخر، قَصَب الذريرة... يذكر (الأنصاري) حوالي (عشرين) عقاراً، يُدَقّ الجميع ويُنخَل ويُعجَن بمطبوخ ريحاني عتيق، ويُتَخَذّ أقراصاً بعد مسح اليد بدهن البلسان ويُجَففّ في الظل.

2- أقراص العنصل:

يؤخذ من بَصل العنصل ويوضَع في النار، ثم يُسحَق في الهاونِ، ويُخَلط مع الدقيق ويُتخَذ منه أقراصاً.

3- أقراص الأفاعي:

تُصاد الأفاعي في الوقت الذي ينقضي فيه الربيع... وبعد ذَبحها وسَلخها يُطَبخ لَحمِها على حَجَر ثم يُخلَّط مع الخبر النقي ويُتَخذ أقراصاً رقيقة، ويُحفَظ في إناء زجاج أو ذَهب.

آنية الترياق:

الإناء الذي يُحفظ فيه معجون (الترياق) ينبغي أن يكون جافاً مَطليّاً بدهن البلسان، ويُوضَع فيه معجون (الترياق) التي ثلثيه فقط، ويُغلَق إغلاقاً مُحكَماً ويُعَلقّ ليمنعه من الغبار والصدمات وفي مكان خالٍ من الرطوبة.

1- الذهب: لقربه من الاعتدال ولا ينحّل منه شيء يُخالط المعجون.

2- الفضة الصافية: لأنها قريبة من جوهر الذهب.

3- الرصاص.

أما الأواني غير المرغوبة فهي:

1- الفضة التي لم تُصفَّى.

2- النحاس: لأنه قابل للزنجَرة (التأكسُد).

3- الغُضار: (الخزف).

4- الحديد.

5- الزجاج: لأنه يمنع (الترياق) من التنفس، فيؤدي إلى سخونته فيعرض فيه العفونة أو الغليان والتغيّر في فعاليته الدوائية.

المنهج العلمي في التأليف:

يذكر (الأنصاري) في الباب (الثالث والثلاثين) معلومات هامة وموثقة عن المصادر الطبّية والنباتية التي اعتمدها في تأليف كتابه ومن بينها حجم الكتاب وأهميته، كما يورد مقدمة الكتاب الذي نقل منه، ويتجلّى منهجه في التلخيص والتبويب وجمع المعلومات المتعلقة بموضوع الترياق، وتنسيق هذه المعطيات العلمية وتوزيعها ضمن أبواب الكتاب،

وهو ينسب كل قول إلى قائله بأمانة تامة بدون تغيير أو تبديل، ويتدخل فقط في التلخيص والتبويب، وساعده في ذلك اطلاّعه الكامل والوافي على جميع المصادر ذات العلاقة بموضوع كتابه، مما جعل كتاب (جامع الاتفاق والافتراق لصناعة الترياق) موسوعة كاملة وشاملة عن الترياق، حيث تناوله المؤلف باستفاضة ولم يتركْ شاردةً ولا واردةً فيما يتعلق بصناعة الترياق إلا وذكرها وناقشها، فهو صورة حَيّة عن صناعة الدواء في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، كما أن المعلومات القيّمة التي ذكرها المؤلف أضافت إلى رصيدنا المعرفي حول المصادر الطبية القديمة، وأوضحت لنا بعض المعطيات الغامضة والغائبة، ويقول الأنصاري مُلَخِّصاً طريقته في الاستعانة بهذه المصادر: [وأما الكتب المنتزعة منها هذه المقالة فهي الكتب المشهورة المعتمد عليها والمرجوع إليها في هذا التركيب وفي ماهيّات مفردات هذا التركيب وأحكام ذلك، ومنها أُصول وفوائد كبيرة، ومُصَنِّفُوّها هم أئمّة هذا العلم وقد ذكرنا طبقات بعضهم في بابه، وأفردنا هذا الباب بذكر كتبهم لتكون كالفهرسة لمن أرادَ أن يرجع إلى الكشف منها عن منقوله في هذه المقالة أو غير ذلك، وقد كان في هذه المقالة أن نجعل كلام الفاضل جالينوس أول كل كلام، ويتلوه بكلام ديسقوريدس فكذلك قَدمّناها][24].

المصادر اليونانية المعتمدة لدى (الأنصاري):

- كتاب الأدوية المقابلة للأدواء لجالينوس:

يصفه (الأنصاري) [كتاب جليل القدر كثير النفع فيه تراكيب حسنة كثيرة، وهو مقالتان: الأولى فيما يتعلّق بصنعة الترياق خاصّة، والثانية في تراكيب كثيرة كالأقرباذين، ومقدار حجم هذا الكتاب بالتقريب ثمان كراريس بقطع ربع الورق البغدادي ترجمة حنين بن إسحق][25].

2- كتاب جالينوس في الترياق:

ويُعَرِّفُهُ (الأنصاري): [وهو مقالة واحدة كتب بها إلى رجل يقال له (ميموليانس) وكان من الأجلاّء][26] ويفيدنا (الأنصاري) معلومات إضافية عن ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية قائلاً [ذكر حنين بن اسحق في الفهرس الذي أثبته مما وجد من كتب جالينوس (والمقصود بها: المقالة في ذكر ما تُرجم من كتب جالينوس وبعض ما لم يُترجم، كتَبها إلى علي بن يحيى المنجم)[27] أنه لم يجد لهذه المقالة إلا نُسخةً واحدةً يونانية فيها خطأ كبير فترجمها إلى السرياني، ثم أن عيسى بن يحيى تلميذه ترجمها إلى اللسان العربي وأصلَحها عبد الله بن اسحق المعروف بأبي سهل ومقدار حجم هذه المقالة تقريباً كراس واحد][28].

3- كتاب جالينوس في الأدوية المفردة:

يُزوّدنا (الأنصاري) بما يلي: [ترجمة حنين بن اسحق وهو كتاب جليل القدر عظيم النفع يَشتمل على إحدى عشرة مقالة كلها في قوى الأدوية المفردة ومقدار حجم الكتاب تقريباً يكون خمسة وعشرون كراساً بقطع ربع ورق البغدادي، ترجمة حنين بن اسحق][29].

4- كتاب جالينوس في الترياق الذي كتبه إلى قيصر ملك الروم:

يقول الأنصاري: [وهو كتاب جليل القدر عظيم النفع في هذا العرض يشتمل على فوائده كثيرة، وعلى الترتيب الذي ارتضاه جالينوس في الترياق، ومقدار حجمه ثلاث كراريس قطع البغدادي تقريباً، وهو أيضاً ترجمة حنين بن اسحق][30].

5- كتاب ديسقوريدس في قوى الأدوية المفردة:

يذكره (الأنصاري): بأنه [كتاب جليل القدر عظيم النفع لم يكن في الأدوية كتاب أفضل منه، ومُصَنفه إمام هذا الفن وصاحب السبق في الكشف عن أسرار المفردات وتعريف قواها وصفاتها ومقدار حجمه بالتقريب ثلاثون كراساً][31].

6- كتاب ترجمة حنين بن اسحق:

ولم يُحَدّد (الأنصاري) عنوان الكتاب بالتحديد، أو أي معلومات أخرى، ومن المعروف أن (حنين بن اسحق) قد ترجم كتباً كثيرة وعديدة من اليونانية إلى العربية، ولكننا نُرَجِّح أن يكون الكتاب له علاقة بالترياق أو بالأدوية المفردة.

7- كتاب يحيى النحوي في الترياق:

وقد ورَد بعنوان آخر عند (ابن أبي أصيبعة) هو [جوامع كتاب الترياق لجالينوس][32] وليحيى النحوي لقب آخر هو (فيلوبينوس) أي المجتهد، وعاش في القرن السابع الميلادي في مدينة الإسكندرية وأدرك الفتح الإسلامي لعمرو بن العاص لمصر في عهد الخليفة (عمر بن الخطاب)، وهو من جملة السبعة الحكماء المصنّفين للجوامع الستّة عشر وغيرها في مدينة الإسكندرية، وله مُصنّفات كثيرة في الطب وغَيره[33].

ويصف الأنصاري كتابه بأنه [مشهور أيضاً وكثير النفع ومقدار حجمه نحو اثني عشر كراساً بالتقريب][34].

أما المصادر العربية فكثيرة وهامة، وتكشف لنا الكتب المعتمدة في القرن السابع الهجري في مجالِ الصيدلة والنبات، ومدى تأثر وتداخل مدرسة القدس النباتية التي نفترض بأن (الأنصاري) آخر من يُمثلها مع المدرسة الأندلسية في النبات ومدرسة القيروان ومدرسة بغداد، وهي على الترتيب التالي:

1- كتاب حنين بن اسحق في الترياق:

(وهو أيضاً كتاب جليل القدر عظيم النفع، كثير الشهرة عند أهل هذا اللسان، وهو مقالتان ومقدار حجمه ستة كراريس)[35].

2- كتاب التميمي في الترياق:

وهو (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي) من مدينة القدس والمتوفى بعد (390هـ/1000م)، من الأطباء المشهورين والمتميّزين (وله خبرة فاضلة في تركيب المعاجين والأدوية المفردة، واستقصى معرفة أدوية الترياق الكبير الفاروق وتركيبه ورَكَّب منه شيئاً كثيراً على أتمّ ما يكون من حسن الصنعة، وانتقل إلى الديار المصرية وأقام بها إلى أن توفي)[36]. والتميمي اهتم كثيراً بصناعة (الترياق) حتى يمكن اعتباره مختصّاً فيه ووصفه المؤرخ (جمال الدين القفطي): [وكان له غرام وعناية ثابتة في تركيب الأدوية وعنده غوص على أمور هذا النوع واستغراق في طلب غوامضه، وهو الذي أكمل الترياق الفاروق بما زاده وذلك بإجماع الأطباء، وله في الترياق عدة تصانيف ما بين كبير ومتوسط وصغير][37].

وكتاب التميمي في الترياق الذي استعان به (الأنصاري) وكان من جملة مصادره، ذكره (ابن أبي أصيبعة) بعنوان طويل هو: [رسالة إلى ابنه علي بن محمد في صُنعة الترياق الفاروق والتنبيه على ما يغلط فيه من أدويته، ونعت أشجاره الصحيحة وأوقات جمعها وكيفية عجنه، وذكر منافعه وتجربته][38] ويصفه (الأنصاري):

[بسط فيه القول في ذكر المفردات وهو حَسَن الترتيب عظيم النفع مقدار حجمه عشرون كراساً بالتقريب][39] وهذا الكتاب مفقود تماماً ولم يصلنا، ولم تذكره أي من فهارس المخطوطات ولحسن الطالع وصلنا مقتبسات كاملة عن طريق (الأنصاري) حيث أثبت المقدمة، وفقرات مطوّلة منهُ تَمكنتُ من إعادة تجميعها فتشكَّل لدي قسمٌ كبيرٌ من محتويات هذا الكتاب المهم الذي يكشف عن الصناعة الدوائية والعلوم والمعارف النباتية والأدوية المفردة في القرن الرابع الهجري، للعالم الطبيب (أبو عبد الله التميمي) والذي يُعتبر أبرز طبيب عربي اهتمّ بالبيئة وكيفية حمايتها والتحرّر من فَساد الهواء والغذاء في كتاب مستقل هو [مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرر الأوباء][40]، ويقول (التميمي) في مقدمة كتابه (الترياق) نقلاً عن (الأنصاري): [... أما بعد يا بنيّ فإني وجَدتُ حكماء اليونانيين ومن بعدهم من أفاضل الأطباء المحدثين إلى عصرنا هذا مُجّمعين على فضل الترياق الأكبر ومُقدميِّن له في سائر كتبهم وجميع أدويتهم ومعاجينهم ومُطنبين في فضائله، وحُقَّ لما كان منقذ النفوس من العطب وشافياً لها من عظيم الوصب أن يُقَرَّظ بكل لسان ويُفرط وصفه بكل مكان ويَدَّخرهُ كل إنسان لموضع فاقته إليه وفقره إلى نفعه عند شرب السموم المتلفة ونهش الحيوانات المهلكة، ولما كانت الملوك العظماء وسائرُ الكبراء والمراتب العالية والأفراد الساميّة من أكثر الناس مُنافساً وحاسداً وأعداؤهم من ألطف الأعداء حِيَلاً ومَكائداً، كانوا إلى إدخاره دون غيرهم أَحوَجُ، وباقتنائه أشدُّ كَلَفاً وألهج، ولم أر أحداً من مُلوك الشرق إلى عصرنا غير السادة الأبرار والأئمة الأطهار الذي بالمغرب من ولد الرسول صلى الله عليه وسلم إلا مُغفِلاً لذكرهِ][41].

3- كتاب علي بن يوسف التنوخي:

ويصفه الأنصاري بقوله: [وهو من المتأخرين من أهل عصرنا، وهو كتاب كثير المنافع في علم النبات والعقار المختّص بهذا المعجون وتركيبه حسن فاضل ومقدار حجمه عشرون كراساً][42] وعنوان الكتاب هو: [الكتاب الأشرف في صُنعة الترياق المنقذ للنفوس الشريفة من التلف] ولكن (الأنصاري) وقعَ في خطأ واضح، حينما نَسبَ هذا الكتاب إلى الجد الطبيب (رشيد الدين بن الصوري) المتوفى (639هـ/1241م)، بينما هو لحفيده (علي بن يوسف التنوخي) المتوفى بعد (656هـ/1258م) ويبدو ذلك واضحاً وجَليّاً من مقدمة الكتاب (الأشرف) الذي أثبته (الأنصاري) وهو: [قال العبد الفقير إلى الله تعالى علي بن يوسف بن عبد الله التنوخي المقدسي سبط الحكيم العالم رشيد الدين أبي علي منصوربن أبي الفضل بن علي الصوري، وتلميذه في عالم النبات والعقار والأشجار والأدوية والمعاجين الكبار][43].

ومن خلال هذا النص الهام، يُصَرِّح (التنوخي) بأنه سبطُ وتلميذ (ابن الصوري)، وتعريف السبط هو: وَلَد الابن والابنة[44]، ولكن (الأنصاري) خلَط بين الجَد والحفيد، ربما لأن (التنوخي) كان يُلازم ويُساعد أستاذه وجَده (ابن الصوري) ويتحدث عن أعماله كثيراً في كتابة (الأشرف) ويَذكر مواقفه وآراءه النباتية والطبّية، وقد كان طبيباً لخاصّة الملوك الأيوبيين، وقد تتبعت الفقرات التي نقلها (الأنصاري) من كتاب (الأشرف)، فتبيّن لي استحالة بأن يكونَ (ابن الصوري) و (التنوخي) شخصاً واحداً، فالتنوخي يذكر بأنه شاهدَ مادة (الطين المختوم) عند الحكيم (رشيد الدولة بن الفارس) في دمشق سنة (646هـ)[45]، وفي موضع آخر بَلَغهُ بأن نبات (القسط) قد وَرَدّ منه إلى (دمشق) سنة (653هـ) شيئاً صالحاً[46] مما يَدُّل على أن الكتاب (الأشرف) قد دُوَّنَ بعد هذا التاريخ، و (ابن الصوري) الذي نُسب إليه (الأنصاري) الكتاب قد توفى كما ذكرنا (639هـ/1241م) والواقع أن

إغفال المصادر القديمة لذكر (التنوخي) قدّ أدّى لهذا الخلط والالتباس حول شخصيته، وبالتالي لم نستطع تحديد تاريخ وفاته بدقة، وافترضنا أنه بعد (656هـ/1258م) أي بعد الانتهاء من تدوين كتابه (الأشرف).

4- كتاب الجامع للعشّاب عبد الله بن البيطار:

والمقصود به هو الكتاب المشهور (جامع مفردات الأدوية والأغذية) للعالم النباتي الشهير عبد الله بن البيطار المتوفى (646هـ/1248م) ويقول عنه (الأنصاري): [ذكر فيه علم النبات والعقار والأدوية المفردة بأحسن ترتيب وعبارة وإيضاح وتقريب، وهو كتاب جليل القدر عظيم وصاحبه قد اجتمع المتأخرون على فضله في علم الأدوية المفردة ومقدار حجم الكتاب أربع مجلدات، وكل مجلد خمسة وعشرين كراساً تقريباً، وأخذنا منه ما كان يتعلق بغرضنا في هذه المقالة][47].

5- كتاب الرئيس ابن سينا المعروف بالقانون:

وهو معروف ومشهور قَرَظّهُ (الأنصاري): [كتاب جليل لا يكاد يحوي فضله ولا فضل مُصَنِّفهِ مَدح، نقلنا منه ما يتعلق بغرضنا في هذه المقالة من أقرباذنيه وكتاب أدويته المفردة وغير ذلك، ومقدار حجمه ستُ مُجلّدات، كل مُجلّد نحو خمسة وعشرين كراساً][48] ومن الواضح أن (الأنصاري) استعانَ بالكتاب الثاني من (القانون في الطب) وهو مخصّص للأدوية المفردة.

6- كتاب الزهراوي:

والمقصود به طبعاً الكتاب الشهير (التصريف لمن عَجِز عن التأليف) الذي صنّفه (أبو القاسم الزهراوي) وفرغ من تأليفهُ في آخر عقد في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي)، وهو موسوعة طبية عربية من أهم وأروع ما كُتِب في تاريخ العلوم الطبّية العربية والإسلامية، ويتألف من ثلاثين مقالة تبحثُ في الطب النظري والعملي والمعالجة والأدوية المفردة والمُركّبة والجراحة ولا يُحدّد (الأنصاري) أي من مقالات الكتاب استعان بها في تصنيف كتابه (جامع الافتراق) ويكتفي بالقول: [كتاب جليل القدر يحتوي على أسرار وأعمال شريفة في هذه المقالة، ومقدار حجمه عشر مُجلّدات كل مُجلد عشرين كراساً][49].

ونذكر بأن المقالة الرابعة من كتاب (التصريف) مُخصّصة للترياقات وبخاصّة الترياق الفاروق الكبير، والأدوية المفردة المضادة لمختلف أنواع السموم وفعلها في البدَن.

7- كتاب ابن وافد في الأدوية المفردة:

وهو الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن وافد المتوفى (467هـ/1075م) جمع فيه بين كتاب ديسقوريدس وجالينوس.

8- كتاب الأدوية المفردة للغافقي:

وهو العالم النباتي والطبيب أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي، المتوفى (560هـ/1264م)، وكتابه (الأدوية المفردة) جَمَع فيه أقوال القدماء والمحدثين في الأدوية المفردة.

9- كتاب لابن جميع الإسرائيلي:

وهو أبو العشائر هبة الله بن زين بن جُميع المتوفي (594هـ/1198م)، ولكن (الأنصاري) لا يُصَرِّح بإسم الكتاب الذي استفاد منه ويكتفي بالقول: [كتاب لابن جميع الإسرائيلي أربع مقالات نقلنا من الرابعة ما يتعلّق

بغرضنا وهو مجلّدين مُقدار كل مُجلّد عشرين كراساً][50]. ومن الواضح أن الكتاب المقصود هو: [الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد][51] وهو من أربع مقالات وقد نقل (الأنصاري) من المقالة الرابعة، كما قام أيضاً بتلخيص (مقالة في أصناف الرواند)[52] التي ألَّفها (ابن جميع) لأحد أصحابه عند إقامته في الإسكندرية، ووضعها تحت مادة (الراوند)[53].

10- كتاب مسائل حنين بن إسحق:

وهو من أشهر كتب حنين بن اسحق، وقد بناه على طريقة السؤال والجواب، والكتاب يُعدُّ من مقدِّمات الطب ومَدخلاً ضرورياً للمتعلم بما يحويه من معلومات حول الأمراض وأسبابها، وهو مُكوَّن من ثمانية فصول، يبحث الفصل السادس في الأدوية المفردة والمركَّبة[54] ومن الواضح أن (الأنصاري) استعان بالفصل السادس لأنهُ يقول: [أخذنا منه ما يتعلّق بالكلام في الترياق وهو مقدار عشر كراريس][55].

11- شرح كتاب المسائل لابن أبي صادق:

وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي صادق النيسابوري[56] من تلامذة (ابن سينا) ومن أطباء القرن الخامس الهجري، وقد قام بشرح كتاب (المسائل في الطب لحنين بن اسحق)، وكان من جُملَة مصادر الأنصاري الذي يقول: [مقدار حجمه ثلاثين كراساً أخذنا منه ما يتعلق بغرضنا][57].

12- كتاب الأبدال لابن الجزار:

وهو أبو جعفر بن الجزار القيرواني المتوفى (369هـ/980م) وكتابه (رسالة في أبدال الأدوية)[58] وكان من مصادر (الأنصاري) كما ذكر[59].

13- الأبدال من الحاوي:

والمقصود به الجزء العشرون والجزء الحادي والعشرون من كتاب (الحاوي في الطب) لأبي بكر الرازي المتوفى (320هـ/932م) والجزءان مُخَصّصان للأدوية المفردة.

14- كتاب الملكي:

وهو الكتاب المعروف بـ (كامل الصناعة الطبية) تأليف (علي بن العباس المجوسي) من أطباء القرن الرابع الهجري، وقد استعان (الأنصاري) بالجزء الثاني من الكتاب، المقالة العاشرة المؤلفة من / ثلاثين/ باباً، وقد جاء الباب الرابع بعنوان: في عمل المعجونات وفي عمل الترياق المعروف بالفاروق، والباب الخامس: في صفة منافع الترياق وعَلّل منافعه وامتحانه، والباب السادس: في مقدار ما يُسقَى الترياق وغيره من المعجونات والأدوية، والباب السابع: في صفة ترياق الأربعة وسائر المعجونات، والأنصاري لا يُحَدد بالضبط الفصول أو الأبواب التي استعان بها من كتاب (كامل الصناعة الطبية) ولكنهُ يُصرّح بالقول: [والكتاب مشهور شريف مقداره أربع مُجلّدات كل مُجلّد نحو خمسة وعشرين كراساً][60].

15- أقرباذين سابور:

وهو سابور بن سهيل المتوفى (255هـ/869م) وله تصانيف كثيرة منها الأقرباذين الكبير المشهور جعلهُ / 17 / باباً، وهو الذي كان المعمول به في بيمارستان (جندي سابور) ودكاكين الصيدلة[61] ويَصفهُ الأنصاري [كتاب مشهور مقدار حجمه نحو خمسة عشر كراساً][62].

16- أقرباذين أمين الدولة ابن التلميذ:

وهو موفق الملك أمين الدولة بن التلميذ المتوفى (560هـ/1164م) وكان رئيس الأطباء في البيمارستان العضدي ببغداد إلى حين وفاته[63]، وكتابه (الأقرباذين) يحتوي على / عشرين / باباً، وقد حَلَّ مكانَ (أقرباذين سابور)[64] ويصفه الأنصاري [كتاب قريب المأخذ سهل المتناول حَسَن مشهور نقلنا منه ما يتعلق بغرضنا ومقدار حجمه نحو اثنا عشر كراساً بالتقريب][65].

17- مجرّبات أبي العلاء بن زُهر:

وهو أبو العلاء زُهر بن عبد الملك بن زُهر المتوفى (525هـ/1131م)[66] وكتابه (الفوائد المُجرَّبات، في خواص المعدن والنبات والحيوانات) كان آخر مصادر (الأنصاري) الذي يذكر: [نقلنا منه نسخة له في الترياق اختارها][67].

الأدوية المفردة في مخطوط (جامع الافتراق):

ذَكر (الأنصاري) الباب الرابع عشر من المخطوط بعنوان: (في الكلام على كل واحد من أدويته المفردة وماهيّته ومزاجه وطعمه ورائحته وقوته وفعله ومنفعته وشكله وموضعه واختياره ووقت اختياره وأخذه)[68] وهذا الفصل من أهم فصول المخطوط، لأنه يحتوي على / 74 / نوعاً من الأدوية المفردة مختلفة المصادر ما بين نباتية وحيوانية ومعدنية، جمع عنها كل ما كُتب أو قيل من المصادر المذكورة سابقاً، فأصبح لدينا مُعجمٌ طبي نباتي شامل لم يُسبق أحد إليه، ابتدأه بكلام (جالينوس) و(ديسقوريدس) وتبعه بكل العلماء الأطباء العرب المارَ ذكرهم، وقد جَهدَ (الأنصاري) أن يستقصي كل شيء كُتب عن الأدوية المفردة للترياق وفوائده الطبية، وبَدله في حال فقدانه وكيفية التعامل مع هذا الدواء وتحضيره واستخلاص المادة الأوليّة الفعّالة منه، والخلاف والغَلَط الواقع في التمييز بين مختلف الأدوية المفردة الداخلة في تركيب الترياق، ومقدارِ الجرعة المناسبة من الترياق لكل مرض على حِدة، كذلك لم يهمل الزمان المناسب من أوقات السنة وفصولها الذي يمكن فيه صناعة الترياق، وشروط المكان الذي يَتمّ فيه التصنيع، والآنية التي يُركَّب فيها، وكيفية عَجن مكوّناته المختلفة مع بعضها وخلّطها وتخميرها، والوزن المطلوب لكل واحدٍ من مُفرداته على حِدَة، وأخيراً مناقشة فلسفية للمشكّكّين في فعاليّة الترياق الطبية، وفي الختام لم يهمل ذكر المصادر التي اعتمد عليها بشكل مفصّل، وما يُحمَد للأنصاري أمانته العلمية فهو يُنَسبْ كل قولٍ أو شاهدٍ لقائله دون تغيير، مع تسجيل رأيه الخاص إذا لَزِمَ الأمر، وبالنسبة لفهرس للأدوية المفردة فهو على الشكل التالي:

حرف الألف: أذخر – أنيسون – أسارون – أفيون – اسطوخودوس – الأقحوان – أقاقيا.

حرف الباء: بزر اللفت البري – بَلَسان – دهن البَلَسان – بنطافلن.

حرف الجيم: جاوشير – جنطيانا – جندبيدستر – الجُعدة.

حرف الدال: دار صيني – دار شيشعان – دار فلفل – دوقو.

حرف الهاء: هوفا – لحية التيس – هيوفاريقون.

حرف الواو: وَجّ – ورد.

حرف الزاي: زيت – زنجبيل – الزعفران – زراوند.

حرف الحاء: الحرف البابلي – حماما.

حرف الطاء: الطين المختوم.

حرف الياء: لا شيء.

حرف الكاف: كما فيطوس – كما دريوس – كُنُدر – كُرْسّنة.

حرف اللام: لا شيء.

حرف الميم: مالاتيرن – مو – ميعة – ملح – مصطكي – مُرّ – مريافلون – مسطراطيوس – المخلصة.

حرف النون: نانخواة.

حرف السين: ساذج – ساساليوس – سوسن – السكبينج – السليخة – سُنبُل رومي.

حرف الشين: لا شيء.

حرف العين: عَنصَلَ – عَسَل.

حرف الفاء: الفو – الفودنج النهري – الفلفل – فراسيون – فطر ساليون.

حرف الصاد: صمغ البطم – صمغ عربي.

حرف القاف: قلقديس – قلفت – قلقطار – القنة – القار والقير . قنطريون – قُسط – بحري – قريطانا – قصب الذريرة.

حرف الراء: راوند – رازيانج.

حرف السين: شبت.

حرف الثاء: لاشيء.

حرف الخاء: خبز.

حرف الذال المعجمة: لاشيء.

حرف الغين: غار – غار يقون.

ونتساءل إلى أي حد كان مؤلف الترياق (الأنصاري) مُجَدّداً أم مُقَلِّداً؟ أي هل أضاف إضافات منهجية مُعجمية إلى مفردات الترياق من الأدوية المفردة، وإلى تصنيع الترياق أم كان مُجَرد ناقل وجامع لما جاء قبله؟ أم كان دوره مقتصراً على التبويب والترتيب مع سعة إطلاع كبيرة واسعة.

خاتمة:

كان (علي بن عبد العظيم الأنصاري) ذا ثقافة موسوعية شاملة، ولعلّ أهم ميزة تُسَجّل له في تاريخ الطب والصيدلة العربية هو تصنيفه لموسوعته الهامة (جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق)، وفي مستوى التأليف كانت هذه الموسوعة من أشمل وأكمل ما كتب عن الترياق من الناحية الطبّية و العلاجية، ومن المؤسف أن تُغفله المصادر والمراجع ولا تتحدث عنه، ولكنه ترك لنا أثراً خالداً في المكتبة الطبية العربية، وحفظ لنا معلومات قيّمة وموثّقة عن المصادر الطبية والنباتية حتى القرن السابع الهجري، يَسَّرت لنا منافذ وطرق جديدة للبحث والتاريخ.

هوامش الفصل التاسع

(1) سارتون: جورج – تاريخ العلم – (2 / 250).

(2) ذات المصدر.

(3) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق – مخطوط جامعة برنستون رقم (565 H) ورقة / 6 /.

(4) المصدر السابق – ورقة / 5 /.

(5) مجلة العلوم – الكويت – العدد (3، 1995، ص 32).

(6) المقريزي – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار – (1 / 420).

(7) رسالة الإشراق لأحكام الترياق – مخطوط دار الكتب الظاهرية – رقم 42547– ورقة / 1 و /

(8) المصدر السابق – ورقة / 15 و /

(9) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 5 و /.

(10) ذات المصدر – ورقة / 1 و /

(11) ذات المصدر – ورقة / 7 و /

(12) لسان العرب – مادة ترياق.

(13) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 2 و/.

(14) ابن الحشاء: مفيد العلوم ومبيد الهموم – ص19.

(15) جارلند: جوزيف – قصة الطب – ص55.

(16) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 2 ظ/.

(17) ذات المصدر – ورقة / 2 و /.

(18) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء – ص 520.

(19) حمارنة: سامي خلف – فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية– ص 221 – 223

(20) البابا: محمد زهير – الأقرباذينات – الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب – ص 607.

(21) ذات المصدر – ص611.

(22) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 125 و/.

(23) الأقرباذينات – ص 619.

(24) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 2 و /.

(25) ذات المصدر.

(26) ذات المصدر.

(27) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء – ص 272.

(28) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 152 و/.

(29) ذات المصدر – ورقة / 153 و /.

(30) ذات المصدر.

(31) ذات المصدر.

(32) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 124.

(33) ذات المصدر – ص 153.

(34) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 153 و/.
(35) ذات المصدر.
(36) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 546.
(37) القفطي – أخبار العلماء بأخبار الحكماء – ص 74.
(38) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 548.
(39) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 153و/.
(40) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 548.
(41) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 155 و/.
(42) ذات المصدر.
(43) ذات المصدر – ورقة /156 و /.
(44) لسان العرب – مادة: سبط.
(45) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 58 و /.
(46) ذات المصدر ورقة / 88 و /.
(47) ذات المصدر ورقة / 125 و /.
(48) ذات المصدر ورقة / 153 و /.
(49) ذات المصدر.
(50) ذات المصدر.
(51) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 579.
(52) ذات المصدر.
(53) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 90 و، ظ /.
(54) الدبّيان: أحمد – حنين بن اسحق – (1 / 117).
(55) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 153و/.
(56) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 461.
(57) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 153 و/.
(58) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 482.
(59) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 153 و/.
(60) ذات المصدر.
(61) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 230.
(62) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 159 و/.
(63) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 349.
(64) ذات المصدر – ص 230.
(65) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 159 و/.
(66) ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء – ص 519.
(67) جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق (مخطوط) ورقة / 153 و/.
(68) المصدر السابق – ورقة / 32 ظ /.

الفصل العاشر
مشافي القدس

كانت حارة الدبّاغة (ج. دبّاغ) وتقع وسط القدس إلى الجنوب من كنيسة القيامة مباشرة مركزاً طبياً مشهوراً في عدّة عصور من تاريخ القدس، وبرزت أهمية المكان بعد بناء كنيسة القيامة في القرن الرابع الميلادي (326 م)، فأنشئت فيها على توالي القرون أنزال HOSPICES (ج. نُزُل) ومستشفيات للحجّاج والمسيحيين.

وقد بنت الأمبراطورة أفدوكيا EUDOCIA في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي كنيسة للقديس يوّحنا قرب كنيسة القيامة – في حارة الدبّاغة اليوم – وبنت معها نُزُلاً لإسكان الحجّاج القادمين إلى القدس، وتقديم الخدمات الصحية لهم[1].

والجدير بالذكر أن القدس بوصفها مقصداً للحجّاج. كانت من المدن الأولى التي عرفت المنازل الموصوفة بإيواء الحجّاج وتقديم المعالجة الطبية لهم، ويذكر الباحث الألماني توبلر T. TOBLER (ت1877م) إلى رواية عن وجود مستشفى (نُزُل) في القدس في القرن الثاني قبل الميلاد.

وقال بأن يوهانس هركانوس الأول (175–104ق.م) وهو الكاهن الأعلى، وحاكم منطقة القدس زمن الحشمونيين (أسس من المال الذي جمعه من قبر داوود مستشفى عمومياً كان يؤوي ويطعم الحجّاج الفقراء والمرضى)[2].

في القرن الرابع الميلادي نشأت في ذهن المعلم الكنسي باسيليوس الكبير فكرة النُزل المتخصصّ بالمعالجة الطبيّة، فأسّس أمام أبواب مدينته قيسارية ببلاد الروم عام (370م) مجمعاً من المباني يضمّ نُزُلاً لحجّاج ومستشفى للفقراء وصار هذا المجمّع وأمثاله يدعى باسيلياس[3].

وقد أشار الأسقف كيرّيلوس KYRILLOS (313–387م) إلى وجود مستشفيات في مدينة القدس عندما تولي أسقفية القدس عام (348م)[4].

وارتبط ذلك بتحوّل الدولة البيزنطية رسمياًُ للمسيحية، وشرعت الكنيسة بتسهيل زيارة الحجّاج إلى القدس وإقامتهم فيها: في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، أنشأ الأمبراطور جستنيان (527–565م) مشفى يحتوي على مائة سرير، زيدت بعد ذلك إلى مأيتين، وخصصّت له مخصصّات سنوية وموظفين للعناية بالمرضى، ويروي سعيد بن البطريق (البطريرك أفتيشيوس) قصة بناء هذا المشفى، بأنه أعقب سلسلة من الحوادث الشنيعة الدامية ارتكبها (أهل السامرة) ضد النصارى وكنائسهم، فأخمد الأمبراطور جستنيان هذا التمرد، وأمر [... أن تبنى الكنائس التي أحرقها السامرة، وأن يبنى في بيت المقدس للغرباء بيمارستان..][5].

تجدّدت في القدس أواخر القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، ظاهرة إنشاء الأنزال المعنيّة بتقديم الخدمات الطبيّة، فقد تطوّرت العلاقات بين الخلافة العباسية في عهد هارون الرشيد (149هـ/766م – 193هـ/809م) وشارلمان أمبراطور الفرنجة (742هـ/814م)، وما لبث إن زاد عدد الحجّاج المسيحيين القادمين

إلى القدس، واحتاجوا تبعاً لذلك إلى أنزال يقيمون فيها، وقد أقيمت في الساحة الممتدة أمام كنيسة القيامة في موقع حارة الدبّاغة اليوم[6].

المستشفى الفاطمي:

زار الرحّالة الفارسي (ناصر خسرو) القدس قبل منتصف القرن الخامس الهجري، وبالتحديد عام (438هـ/1036م)، وانفرد بنقل خبر مهمّ لم يسبقه إليه أحد، مفاده وجود مستشفى إسلامي في مدينة القدس يبدو أنه تأسّس في العهد الفاطمي بتوجيهات من احد الخلفاء الفاطميين، أو أحد ولاتهم. قال ناصر خسرو: [وفي بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء. وبه أطباء يأخذون مرتّباتهم من الوقف. وهذا المستشفى ومسجد الجمعة يقعان على حافة وادي جهنم][7].

لم تصلنا أي معلومات أخرى عن المستشفى الفاطمي المشار إليه، ولم يتعرّض له الباحث (أحمد عيسى) في كتابه الهام (تاريخ البيمارستانات في الإسلام)، ونستنتج من النص بأن المستشفى أوقفت عليه أوقاف طائلة للإنفاق على المرضى والأطباء، كغيره من المستشفيات الإسلامية، أما موقعه فغالباً يقع شمال مسجد الجمعة (أي المسجد الأقصى) وليس في منطقة الدبّاغة التي كانت المركز الطبي لمدينة القدس[8].

ومن المرجّح أن هذا المستشفى توقّف عن تقديم خدماته الطبيّة مع انهيار الحكم الفاطمي، وقدوم الفرنج إلى البلاد.

ويذكر الباحث بيترز PETRERS في كتابه عن القدس خبر إنشاء مستشفى آخر في القدس عام (439هـ/1048م) فقد اقنع تجار مدينة أمالفي AMAML FI الإيطالية الخليفة الفاطمي المستنصر أبو تميم معد (ت 487هـ/1094م) بمنحهم الأذن لإنشاء مستشفى وكنيستين، أولاهما تدعى كنيسة ماري اللاتينية الصغرى، وثانيتهما كنيسة ماري اللاتينية الكبرى، وكانت هذه المنشآت الثلاث في حيّ الدبّاغة، والذي عرف بالمارستان فيما بعد، والجدير بالذكر أن العاملين في مستشفى أمالفي كانوا يلقبوّن أنفسهم (أخوان مستشفى القديس يوحنّا)[9].

وبعد احتلال الفرنج لمدينة القدس عام (492هـ/1099م) وجدوا المستشفى اللاتيني على حاله، فجعلوه أول مرفق عمومي في المدينة، ووقف الملك بولدوين الأول وجوتفريد دي بويون الأوقاف عليه[10].

مستشفى القديس يوحنّا:

تأسّس في بداية القرن الخامس الهجري / الثاني عشر الميلادي، من قبل منظمة القديس يوحنّا، أو فرسان القبر المقدس HOSPITALLERS، والمعروفة باسم الأسبتارية. واضطلع أفرادها بدور كبير في حروب الفرنجة، فقد تأسّست في السنة التي استولى فيها الفرنجة على القدس (492هـ/1099م)، ولم تلبث أن اكتسبت السلطة ونفوذاً قوياً بسبب الأموال التي كانت تجنى باسمها في جميع أنحاء أوروبا، وكان مستشفى القديس يوحنّا مؤهّلاً كمنزل للحجّاج ومستشفى لمعالجة المرضى، أي مرضى الحجّاج على الأخصّ، ويستفاد من أوصاف الرحالّة اللاتين بأنه كان يقع في الجهة الغربية من حارة الدبّاغة مقابل كنيسة القيامة إلى الجنوب[11].

البيمارستان الصلاحي، أو بيمارستان القدس

أنشـئ أواخـر القـرن السـادس الهجـري / الثـاني عشـر المـيلادي، فـي حـارة الدبّاغـة، وبالتحديـد عـام (588هـ/1192م)، كما يذكر عز الدين بن الأثير في أحداث سنة (588هـ/1192م): [أما صلاح الدين فإنه بعد تمام الهدنة سار إلى بيت المقدس وأمر بإحكام سوره وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين ووقف عليها الوقوف][12].

ويؤكد ذلك المصادر الرئيسة الأخرى: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلي، والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شدّاد، والفتح القسّي للعماد الأصفهاني، وبذلك يكون كثير من المؤلفين المحدثين قد أخطأوا في تحديد سنة إنشاء البيمارستان بجعلها سنة (583هـ) بدلاً من سنة (588هـ)[13]، وذلك بعد أن فرغ صلاح الدين من صلح أو هدنة الرملة.

وقد جعل صلاح الدين الكنيسة المجاورة لدار الاستبارية (أي كنيسة مستشفى القديس يوحنّا المجاورة لكنيسة القيامة) بيمارستاناً.... للمرضى، ووقف عليه أوقافاً وفوّض النظر والقضاء في هذا الوقف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المشهور بابن شدّاد، الذي أمره السلطان صلاح الدين بالمقام في القدس للإشراف على كل من البيمارستان والمدرسة الصلاحية التي أنشأها السلطان، وكان ابن شدّاد أول ناظر للمستشفى[14].

أوقف صلاح الدين أنواعاً مختلفة من العقارات منها: بيوت للسكن وأفران وطواحين في محلاّت وأحياء مختلفة، ودكاكين ومخازن ومعاصر و مزارع وصهاريج (آبار) وأحكار وأراضي تجاوز عددها المئة عقار[15].

وتجدر ملاحظة هامة أن صلاح الدين لم يغلق مشفى القديس يوحنّا (دار الأسبتار الفرنجي)، وإنما سمح لعشرة من الأسبتارين في البقاء لرعاية المرضى[16]، وبقي قائماً بضع مئات من السنين حتى زال عن الوجود أوائل القرن السادس عشر[17].

أما البيمارستان الصلاحي فقد عاش بعده ثلاثة قرون حتى القرن الثامن عشر الميلادي ثم اندثر بصورة تامة، أي في الفترة الأولى من العصر العثماني وذلك تبعاً لسجّلاّت المحكمة الشرعية في القدس لهذه الفترة[18].

وهذا يخالف الرأي القائل بأن البيمارستان أدركه الخراب أثر زلزال أصيب به عام (862هـ/1458م)، وهو ما قرّره أحمد عيسى بناء على رسالة الأستاذ عادل جبر مدير المتحف الإسلامي ودار الكتب بالقدس سابقاً[19].

وهناك وثيقة صادرة عن المحكمة الشرعية في القدس بتاريخ 12/ربيع الثاني/ 1019هـ 4/تموز/1610م، تقضي بتعيين داوود بن محمد العجمية لخدمة المرضى والمجانين بالبيمارستان الصلاحي بأجر قدره عثمانيان كل يوم[20].

ووثيقة أخرى لسنة (1203هـ/1788م) تفيد بتقرير وفا أفندي العلمي في وظيفة التولية على وقف البيمارستان الصلاحي خلفاً ليوسف سيفي أغا جندجي باش بالقدس الشريف[21].

والواقع أن البيمارستان الصلاحي بدأت أوضاعه بالتراجع بعد القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بسبب اعتماده في تمويله على ريع الأوقاف المخصصّة له، وكانت تتفتّت مع مرور الوقت، مما أدى إلى انهيار المؤسسة الوقفية بأسرها فيما بعد.

فالبيمارستانات لم تكن مؤسسات رسمية تابعة لدولة، وإنما كان للدولة إشراف عام على إدارتها، مثل المدارس وغيرها من المؤسسات والإنفاق يأتي من ريع الأوقاف الموقوفة على البيمارستان، وكلما كانت الأوقاف أكبر

ارتفع شأن البيمارستان من الوجهتين الفنية والإدارية، وإذا اندثرت الأوقاف كانت البيمارستان تنحلّ، كما انحلّت المدارس.

وثائق تتعلّق بالبيمارستان الصلاحي
وقضايا الطب في القدس

البيمارستان مؤسسة صحّية تطوّرت عبرَ مراحل التاريخ، وبَلغَ شأناً عالياً في مرحلةٍ مُتأخرة نسبياً هي مرحلة الفترة الأيوبية في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وكان يلعب دوراً سياسياً واجتماعياً، فهو مَقرَّ النُخبة الطبّية، ومؤسسة تَعليمية تقوم على تَلَقين الطبِ العملي، ويكونُ تَحت إدارَة نائبِ السلطان، ويُعتبر من معالمِ البلد المعمارية كونَهُ يُشكِّلُ مشروعاً ذي نفع عام.

تكشفُ لنا السجّلاّت والوثائق بعضَ المعلومات التي تُفيدُ بان البيمارستان الصلاحي ظَلَ يَعمل حتى القرن الثامن عشر الميلادي، ورُبما أوائل القرن التاسع عشر أيضاً، وتُشير سِجَّلات محكمةِ القدس الشرعية (السجّل 269) لعام (1203هـ/1788م، ص147) إلى تعيين جَرّاح في البيمارستان في ذلك العام، وإلى تَعيين شخصين في وظيفة الكَلارجية (أمانة المستودع)، والشربتجية (مأمور الصيدلية)[22].

ظَلَ البيمارستان الصلاحي يُقدّم خَدَماته الطبّية للمقدسيين وغيرهم من الحجّاج والقادمين طيلة سبعة قرون وأكثر، وهي فترة قياسية في عمر أي مؤسّسة صحّية في البلاد العربية، بخلاف البيمارستان النوري بحلب الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود زنكي عام (560هـ/1164م)، ومع نهاية القرن العاشر الهجري / السابع عشر الميلادي، توقّف عن تقديم خَدَماته الطبّية والعلاجية، وكانت حلب وسائر بلاد الشام قد ألحقت بالإمبراطورية العثمانية الناشئة، فَتَضاءلت الأوقاف المرصودة له، وما تغلّه من دَخلٍ مالي يؤمّن استمرار العمل فيه، وتُحَوَّل البيمارستان النوري في حلب إلى مأوى للمجانين فقط، ولازَمته هذه الوظيفة حتى تَكرَّس في المفهوم الشعبي والتراث الشَفَوي، وأصبحت كلمة (مرستان) تُوافق مَشفى المجانين والأمراض النفسية.

استمر البيمارستان الصلاحي في القدس بتقديم خَدَماته طيلة الفترة العثمانية الأولى (922 هـ/1516م-1247هـ/1831م)، والواقع أن وجود مؤسسات صحّية متنوّعة ومنظّمة بحسب الطوائف والأديان في القدس في تلك الفترة العثمانية يدعو للإعجاب، ولا ينطبق ذلك على جميع المدن الرئيسية في بلاد الشام، فمدينة حلب لم تعرف أي شكل من المؤسسات الصحّية الرسمية أو الخاصة خلال فترة العهد العثماني، وكانت محرومة من أي رعاية طبّية منظّمة، ولم تولِ الأوقاف الكثيرة المرصودة في حلب، الناحية الصحّية أي اهتمام، بل كانت منصرفة بمجملها إلى بناء وتمويل المدارس والرباطات والخانقاهات والمساجد وغيرها، ولم يفكّر أحد من الولاة العثمانيين الذين كانوا يتعاقبون على حكمها كل سنة أو أكثر، أو من المحسنين أو الواهبين الأثرياء والذين كانوا يرغبون بتخليد أسمائهم، والحصول على الثوابِ والأجرِ الحَسّن في إنشاء أي مؤسسة صحّية كبيرة أو صَغيرة. وكان لا بدّ من انتظارِ الحملة المصرية قبيل مُنتصف القرن التاسع عشر الميلادي، حين دَخلت بلاد الشام جُيوش حاكم مِصر محمد علي باشا، بقيادة ابنه القائد العسكري الشجاع والداهية إبراهيم باشا، وإنشاؤه لمستشفى الرمضانية العسكري في حلب، لتقديم الخدمات الطبية لأفراد جيشه، بعد أن أدركَ بعقليته المنظّمة افتقار المدن

السورية الرئيسة لمشافٍ حُكومية مُنظّمة، تُدار من قِبَلِ السلطة الرسمية، وتُقدّم الخَدمات الطبّية الحديثة، في بلادٍ اشتهرت بالأوبئة والحمّيات، فاتّجه تفكيره بمشورةِ مستشاريه الفرنسيين لإنشاء مشفى حَديث مُنظَّم، يشاد على طِراز مُتقَدّم ومفاهيم أوربية حديثة وَجدت طريقها إلى عقلهِ وعقلِ والده محمد علي باشا.

تُفيد المراجع بأنه كان في القدس خلال القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي طوائف للأطباء والجرّاحيّن والكحّالين «أطباء العيون» والبياطرة، وقد تولّى رئاسة طائفة الأطباء محمد بن احمد بن سويسوا بين عامي (1007هـ/1596م–1010هـ/1610م)، وكان منهم الطبيب الشيخ شهاب الدين أحمد بن ناصر المغربي[23]. أما طائفة الكحّالين فَعُرِفَ من أعضائها عام (1010هـ/1601م) إسحق بن شحادة[24].

أما طائفة البَياطِرة فَترّأس طائفتها (خليل بن أبي زيد) عام (963هـ/1555م)، ومن بين هؤلاء الأطباء (عبد الله البيطار النيكجري)، وبَلَغَ عدد أعضائها خمسة أطباء بيطريين بين أعوام (952هـ/1545م–963هـ/1555م)[25].

نَستخلص من بعضِ وثائق المحكمة الشرعية بالقدس معلومات مُفيدة عن مهنة الأطباء في القدس، والوثيقة الأولى تتعلّق بضرورة مَنح الترخيص للأطباء لممارسةِ مهنة الطب من قِبَل رئيسِ أو شيخ طائفة الأطباء، ونَتبيّن بأن قاضي القدس كانَ من جُمْلَةِ مَهامه مَسؤولاً عن الأطباء، وإقرار تعيينهم أو رفضِ ذلك[26].

الوثيقة الأولى:

(الترخيص للأطباء بممارسة مهنة الطب) سجل 45، ص19، عام (971هـ/1563م)

حَضر بين يَدّيّ مولانا الأفندي نور الله الشيخ شمس الدين محمد بن المرحوم الشيخ زين الدين الحكيم رأس الأطباء بالأمر الشريف السلطاني الوارد على يده، والمأمور فيه أن لا أحد يَعمل طبيباً ولا جرّاحاً ولا شرابيّاً بالقدس الشريف إلاّ بعد إذنه وإجازتهِ له، وأحاطت عِلمه بأنه أهلٌ لذلك، وكل من فَعل ذلك مخالفاً لما أُمر بالأمر الشريف المشار إليه كان مُستحِّقاً للتأديب، وأشهر الندا والإعلام بذلك كذلك. تحريراً في ثاني عشري شهر ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين وسبعماية.

شهود الحال:

عبد البديع القاضي خير الدين كاتبه

وتَتعلق الوثيقة الثانية بتعيينِ إبراهيم بن موسى جرّاحاً في البيمارستان الصلاحي عام (1013هـ/1605م)، بعدَ أن فَرِغَ له والده الطبيب موسى الجرّاح عن ذلك، مما يَدُّل على توارثِ مهنة الطبِ بين أفراد العائلة، وأن وظيفة الطبِ كانت كغيرها من الوظائفِ تُوَّرث أو تُباع.

الوثيقة الثانية: (سجل 850، ص36)

وثيقة تعيين إبراهيم بن موسى جرّاحاً في البيمارستان الصلاحي (الخميس /8/ رمضان 1013هـ /28 كانون الثاني 1605م):

بمجلس الشريعة الغرا، ومَحفل الطريقة النيّرة الزهرا، بالقدس الشريف – أجَلّهُ الله تعالى – قَرّر مولانا الحاكم الشرعي حسام الدين أفندي – الموقع أعلا الكتاب، وَقَّع الله مَناشير أعماله بتوقيع الثواب وظيفة الجراحة بالبيمارستان الصلاحي بالقدس الشريف، من جملة المبلغ الذي قدره في كل يوم عثماني لحامل ذلك الكتاب،

الاوستاذ إبراهيم بن الإوستاذ موسى الجرّاح، بعدما فَرِغَ له والده عن ذلك، بحُسن اختياره ورضاه، في يوم تاريخه، بشهادة السيد علا الدين بن السيد محمد الصمادي، وخير الدين بن موسى، وأذن له في تصريف تلك الوظيفة، بعد خدمته المعهودة، تقريراً وإذناً صحيحين شرعيين مقبولين من الجانبين. جرى وحُرر في ثامن شهر رمضان المعظم قدره وحرمته، سنة ثلاث عشرة وألف.

شهودُ الحال:

مولانا الشيخ أبو الهدى الداودي – مولانا الشيخ غشم بن مكية – مولانا الشيخ محمد الغزّيّ – مولانا الشيخ إسمعيل الخريشي – كاتبه.

الوثيقة الثالثة: تقضي بتعيين محي الدين بن سلطان الجرّائحي شيخاً ومتكلّماً على طائفة الجرّاحين بالقدس.

وتُقرّر الوثيقة قاعدةً هامة تتعلّق بصلاحيّات القاضي أن يمنع الطبيب من مُزاوَلة المهنة الطبّية إذا ثَبُتَ عَدَم كفاءَتِهِ.

فقد حَضر المدعو قاسم بن احمد أمام القاضي وأدّعى على شخص يُدعى إسماعيل أفندي بأنهُ خَتَن ولده الصغير، وقد تبيّن بشهادَة خبيرين من الأطباء أن ختانه كان خاطئاً.

وعليه قرّرَ القاضي مَنع إسماعيل المذكور من تَعاطي صَنعة الخِتان[27].

الوثيقة الثالثة: (سجّل 135، ص149)

وثيقة تعيين المعلم محيي الدين بن سلطان الجرايحي (الثلاثاء 24 شعبان 1054هـ 26تشرين الأول / 1644م).

سبب تحرير الحروف: هو أنه بالمجلس الشرعي المحرَّر المرعي – أجَلَّهُ الله تع – حَضر لدى مولانا وسيدنا، قدوة قضاة الإسلام، ذُخر ولاة الأنام، عُمدة المدرّسين الكرام، الحاكم الشرعي المولى خليل أفندي بن ولي، الموّقع خَطّة الكريم أعلا نظيره – دام عُلاه – الرجل المدعو قاسم بن احمد الشامي، وذَكر لمولانا الحاكم الشرعي المشار إليه: أن الرجل المدعو اسماعيل الهندي، في يوم تاريخه خَتَن ولده الصغير، المدعو محمد الحاضر بالمجلس الشرعي، وأن اسمعيل المزبور لم يُحسنْ خَتَانه، وطَلَبَ الكشف على ختان ولده المزبور، فأحضرَ كل واحدٍ من سيدي أحمد بن يحيى المطبّب، والمعلم محيي الدين بن الحاج سلطان الجرايحي، وهما من أهل الخبرة والمعرفة بذلك، وكشفا على محمد الصغير كشفاً شافياً، فأخبرا أن خَتَانَهُ خطأ، وليس بصحيح، وأنه يحتاج إلى خَتَان ثانٍ، إخباراً مرّعياً، بعد أن أخبرا أيضاً بأن اسمعيل المزبور ليس له معرفة بالختان وليس لهُ معرفة بأمرهِ إخباراً مرّعيّاً، ولما تحرّر ذلك لدى مولانا الحاكم الشرعي المشار إليه منع اسمعيل المزبور من تعاطي صنعة الختن المزبورة منعاً شرعياً، ثم أذن مولانا الحاكم الشرعي المشار إليه للمعلم محي الدين المزبور، بأن يُعيد خَتَان محمد المزبور إذناً شرعياً، ثم بعد تمام ذلك، نَصَبَ مولانا الحاكم الشرعي المشار إليه، الرجل الكامل المدعو محيي الدين المزبور شيّخاً ومتكلّماً على طايفة الجرايحية الكاينين بالقدس الشريف، وأن يُساوي بينهم في صنعتهم، وأن لا أحد يتعاطى صنعة الختانة إلاّ بإذنه، نَصبا وإذناً صحيحين شرعيين مقبولين شرعاً. تحريراً في رابع عشري شعبان المبارك سنة أربع وخمسين وألف.

شهودُ الحال:

شيخ مصطفى العلمي – شيخ سليمان الداودي – شيخ شرف الدين الديري – شيخ زكريا الديري – شيخ عفيف الدين الديري – شيخ علي الثوري – علي بالي الترجمان – الحاج فتح الدين بن علا الدين – برهان الدين بن أحمد الغزّيّ – كاتبه.

الوثيقة الرابعة: تتضمّن تَعيين الحاج مُصلح شيخاً ومتكلّماً على سائر الأطباء، والجرّاحين والحكماء، وتُظهِر الوثيقة الأسلوب المتّبع في التعيين، إذ يتقدّم (جَمعٌ كثيرٌ وَجمٌ غفيرٌ من أهالي القدس الشريف، من العلماء والأعلام والسادات الفخام والمشايخ الكرام وأرباب الفخار والمجد والوقار والاحتشام) إلى القاضي، بأن الطبيب المذكور قد بلَغَ في مِهنتهِ غايَةَ الإتقان، ويستحق أن يوّلى هذا المنصب، ويَستجيب القاضي لطلبهم لكون الطبيب مُؤهّل لذلك، إضافة إلى أنهُ وَرِث المهنة عن جَدّه وأبيه[28].

الوثيقة الرابعة: (سجّل 188، ص187)

وثيقة تعيين الحاج مُصلح (الجمعة أواسط رمضان 1098هـ/ 25 تموز / 1678م) لدى مولانا وسَيدنا حَسن أفندي – دام فضله.

حَضَر يوم تاريخه أدناه جَمعٌ كثيرُ وَجمٌّ غفيرٌ، من أهالي القدس الشريف، من العلماء والأعلام، والسادات الفخام، والمشايخِ الكرام، وأربابِ الفخارِ والمجد، والوقار والاحتشام، ممن سترسم أسمَاؤهم بحاشية خطّه المنثور، وبذيله أدناه، وأخبَروا مولانا الحاكم الشرعي المشار إليه، بانَّ مَفخَر أقرانه، وزين خِلاّنه، الأستاذ الحاج مُصلح الطَبيب، والجرايحي بالقدس سابقاً، قد بَلغ الغاية، ورقيّ دَرَجَ النهاية في صَنعة الطب والجراحة، وحِكمة الأبدان، وأنه قد أتقن صنعته المزبورة، على المنهج القويم، والطريق الأسَد المستقيم، وبأن الأستاذ الحاج مُصلح المزبور، قد بَرَع في صنعة الطبِ والجراحة، حيثما تَعوّد الآن بحسن إتقانها وإحكامها بمدينة القدس الشريف، ونواحيها وإقليمها، وبأنه مُستحّق لأن يكون شيخاً ومتكلّماً على ساير الأطباء والجرّاحين والحكماء، لما شاهدوه من حسن طُبِهِ، ومداعبتَهُ للمرضى بالمحّمية المستورة، وأن يُقرّره في مَشيخَة الأطبّا والحكما والجرايحية، كما كان هو والده من قبله، وجَدّه لأبيه، بحيث أن كلَّ واحدٍ من المطبّبين والجرايحية والحكما بمدينة القدس الشريف إذا أرادَ أحدٌ منهم أن يُداوي مريضاً، أو يُعالج مَجروحاً، لا يَتعاطى شيا من ذلك إلاّ بمعرفته ومشورتهِ. وطلبوا من مولانا الحاكم الشرعي، أن يُنصّب الأستاذ الحاج مُصلح المرسوم، شيخاً، ومُتكلّماً على ساير الأطبّاء والجرايحية والحكما بمدينة القدس الشريف، ليُساوي بينهم في صَنعتهم المزبورة، ويَدُلّهم على ما فيه المصلَحَة للمرضى والمجروحين، ولما ثَبُتَ مَضْمون الإخبار المزبور، من الثقات الآتي أسماؤهم بذيله الظهور المرعي، وثَبُتَ وظَهَرَ لمولانا الحاكم بالتجربة رأي استحقاق الأستاذ الحاج مُصلح لمَشيَخة الأطبّاء والجرايحية والحكما بالمحَميَّة، ولياقتهِ لها، وكونهُ أَحقٌّ بها وأهلها، ظهوراً واتقاناً مرضيين بحسن تجربةٍ وإتقانٍ، لا عن ظَنٍّ وحسبانٍ، نَصَبُهُ فيها لكونه أهلاً لها نَصباً مرّعياً، ولكونها وظيفة أبيهِ وجَدّهِ، وأذن لهُ بتعاطي ذلك، مَقبولاً منه القبولُ الشرعي، ولظهور عِفَّتِهِ وشأنهِ وأمانتهِ ولياقتهِ، ظُهوراً مرّعياً، تحريراً في شهر رمضان سنة ثمان وتسعين وألف.

شهودُ الحال:

الشيخ نور الدين – الشيخ ولي – الشيخ موسى – الشيخ صنع الله – الشيخ محمود.

الوثيقة الخامسة: (سجّل 83، ص 340)

وثيقة تنبّه على يوسف بن ابي خضير بعدم تعاطي صنعة الجراحة والالتزام بصنعته. (الثلاثاء /15/ ربيع الأول 1011هـ/2 أيلول 1602م).

نَبّه الحاكم الشرعي مولانا سفر افندي على يوسف بن أبي خضير، بحضور الحاج محمد المطبّب، وحمدان بن سلطان – أنه من بعد لا يتعاطى صَنعة الجراحة، ولا يَتعاطى غيرَ صَنعتهِ، تنبيهاً مرّعياً بتاريخه. المزبورون[29].

الوثيقة السادسة: (سجّل 83، ص258)

وثيقة تعيين حَسن بن عبد الله الرومي لخدمة المرضى (الثلاثاء/5 محرم 1011هـ 25حزيران / 1602م).

سبب تحرير الحروف بمجلس الشريعة الغرا، بمحروسة القدس الشريف – أَجَلَّهُ الله تع – قَرّر مولانا عمدة النواب، سَفَرَ أفندي المولى الموقع خطّه الكريم أعلا نظيرَه – دَامَ عُلاه – حاملِ هذا الكتاب. وناقل ذا الخطاب، حسن بن عبد الله الرومي السقّا في وظيفة خدمة المرضى بالبيمارستان بالقدس الشريف، بما لذلك من المعلوم، وقدره في كل يوم عثمانيان، عِوضاً عن موسى بن أحمد النجار، بحكم غَيبته عن القدس الشريف من مدّة تزيد على سبع سنين سابقة على تاريخه، وتَعطيل الوظيفَة المذكورة. وأذن مولانا الحاكم المشار إليه لحسن المذكور في مباشرة الوظيفة المذكورة، وفي الاستبانة عند الحاجة، وقَيَضَ المعلوم المعيّن أعلاه، تَقريراً وإذناً صحيحين شرعيين مقبولين، من الحاج محمد المذكور لنفسه، قبولاً شرعياً.

تحريراً في ثالث شهر جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وألف.

شهودُ الحال:

مولانا الشيخ غشم بن مكية . مولانا الشيخ محمد الغزّيّ – إبراهيم بن محمد الترجمان – كاتبه [30].

الوثيقة السابعة: (سجّل 84، ص133)

وثيقة تعيين الحاج محمد بن عبد القادر العجمية لخدمة المرضى (الخميس /3 جمادى الأولى 1012هـ 9تشرين الأول/1603م).

سبب تحرير الحروف بمجلس الشرع الشريف، بالقدس العلي المنيف – أَجَلَّهُ الله تعالى – قَرّر مولانا عمدة قضايا الإسلام، الحاكم الشرعي، مُرتضى أفندي، الموقّع خطّه أعلا نظيرَه – دَامَ عُلاه – حاملِ هذا الكتاب. وناقل ذا الخطاب، الحاج محمد عبد القادر العجمية في وظيفة خِدمة المرضى، بالمارستان الصلاحي بالقدس الشريف، بما لذلك من المعلّوم، وقدره في كل يوم عثمانيان، عِوضاً عن حسن بن محمد السقا الرومي بحكم فراغه له عن ذلك، في يوم تاريخه أدناه، بحسن اختياره ورضاه، وأذن مولانا الأفندي المشار إليه – أجرى الله الخيرات على يديه –للحاج محمد المذكور في المباشرة والاستنابة عند الحاجة وقبض المعلّوم المعيَّن أعلاه، تقريراً وإذناً صحيحين شرعيين مقبولين، من الحاج محمد المذكور لنفسه، قبولاً شرعياً، تحريراً في ثالث شهر جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وألف.

شهودُ الحال:

مولانا الشيخ غشم بن مكية – مولانا الشيخ محمد الغزّيّ –إبراهيم بن محمد الترجمان – كاتبه [31].

الوثيقة الثامنة: (سجّل 90، ص 479)

وثيقة تعيين داود بن محمد العجمية لخدمة المرضى والمجانين (الأحد /12 ربيع الثاني 1019هـ 4 تموز / 1610م).

قَرّر مولانا قدوة النواب، وزبدة الفضلاء، ذوي الألباب، الشيخ نصرة الإسلام – دام علاه – داود بن محمد العجمية في وظيفتي خدمة المرضى والمجانين، بالبيمارستان الصلاحي، بما للوظيفتين المزبورتين من المعلّوم، وقدره في كل يوم عثمانيان، عوضاً عن والده المزبور بحكم وفاته إلى رحمة الله تعالى، وانحلالِ ذلك عنه، وأذن مولانا الحاكم المشار إليه لداود المزبور في المباشرة في الوظيفتين المزبورتين وقَبَضَ المعلّوم المعيّن لهما، تقريراً وإذناً صحيحين شرعيين مقبولين، من داود المزبور لنفسه قبولاً شرعياً.

تحريراً في ثاني عشر شهر ربيع الثاني، سنة تسع عشرة وألف.

شهودُ الحال:

الشيخ أبو الهدى – الشيخ محمد الجاعوني – الشيخ مصطفى العلمي – الشيخ علي الرملي – الحاج منصور المغربي – كاتبه محمد أمين [32].

الوثيقة التاسعة: (سجّل 115، 4)

وثيقة إذن بإجراء عملية سرطان بالفم (الاثنين 19محرّم 1038هـ/18 أيلول/1628م).

بالمجلس الشرعي المحرّر المرعي – أَجَلَّ-هُ الله تعالى – لدى مولانا، قُدوة القضاة، مُحرِّر القضايا والأحكام، صَدر المدرِّسين الكرام، الحاكم الشرعي، المولى طه أفندي بن الشيخ صالح الديري، الواضع خطّه الكريم أعلاه نظيرَه – أَدَامَ عُلاه – حَضَرَ محمد بن شرف الدويك وأشهد على نفسه طايعاً مختاراً أنه أذن لعلي بن عصفور من أهالي قرية بيت صفافا، الكاينة ظاهر القدس الشريف، أن يقطَع ما به من السَرطان، الذي بفمهِ، وَمَنَعَهُ الأكل والشرب، إذناً شرعياً، وأنه إن حصل له شيء بسبب شيء فدمُهُ هَدَرٌ. وحَضرَ أخواه خَليل، وصالح، وأمهم فاطمة، وَعَرّف بها وَلداها المزبوران، وأشهدوا على أنفسهم، أنهم أذنوا لعلي بن عصفور المذكور أن يقطَع السرطان المذكور، من فم محمد شرف المزبور، وأنه إن حَصَلَ لمحمد المزبور شيء بسببِ ذلك من مَوت أو غيرهِ، فلا حَقَّ لهم مع علي المذكور، بسبب ذلك بوجهٍ من الوجوه الشرعية أصلاً، وصَدقهم على ذلك علي المذكور، تصادقوا على ذلك كذلك؛ وثبت الإشهاد بذلك إلى مولانا الحاكم الشرعي الموصى إليه – أسبغ الله تعالى أنواع نعمه عليه – ثُبوتاً شرعياً. تَحريراً في نهارِ الاثنين تاسع عشر المحرَّم الحرام سنة ثمان وثلاثين وألف.

شهودُ الحال:

الشيخ خير الدين – الشيخ مصطفى – الشيخ سليمان – الشيخ صالح كاتب أصله – الشيخ هبة الله – الشيخ تاج الدين – كاتبه[33].

هوامش الفصل العاشر

(1) PETERS، JERUSALEM IN THE EYES OF CHRONICLERS.P. 161.

(2) TOBLER. T.، DENKBLATTER AUS JERUSALEM، ST.GALLENS، 1853، S.417.

(3) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – ص 24.

(4) ذات المرجع.

(5) ابن البطريق – كتاب التاريخ المجموع على التحقيق ص 201.

(6) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – ص 47.

(7) خسرو: ناصر – سفر نامة – ص 21.

(8) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – ص 67.

(9) ذات المرجع – ص 68 – 72.

(10) ذات المرجع – ص 68.

(11) ذات المرجع – ص 81 – 84.

(12) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 222/9.

(13) عيسى: أحمد – تاريخ البيمارستانات في الإسلام – ص 231.

(14) العسلي: كامل جميل . مقدمة في تاريخ الطب – ص 104.

(15) ذات المرجع – ص 105.

(16) ذات المرجع – ص 108.

(17) ذات المرجع – ص 171.

(18) ذات المرجع – ص 172 – 176.

(19) عيسى: أحمد– تاريخ البيمارستانات في الإسلام – ص 231 – 232.

(20) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – ص 186.

(21) ذات المرجع – ص 175.

(22) العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب – ص 104.

(23) ذات المصدر – ص 162.

(24) ذات المصدر.

(25) ذات المصدر.

(26) ذات المصدر – ص 179.

(27) ذات المصدر – ص 165.

(28) ذات المصدر – ص 184 – 185.

(29) ذات المصدر – ص 185.

(30) ذات المصدر.

(31) ذات المصدر – ص 186.

(32) ذات المصدر – ص 187.

(33) ذات المصدر – ص 187.

الفصل الحادي عشر
نوادرالمخطوطات الطبية
لأطباء القدس

القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

محمد بن أحمد بن سعيد التميمي المقدسي(ت 390هـ/1000م)

من أكبر العلماء الذين عرفتهم القدس عبر العصور واغزرهم انتاجاً وعلماً، امتدت شهرته كعالم في الطب والصيدلة بحيث شملت العالم الإسلامي في زمنه.

اشتهر بمعرفته الجيدة بالأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية، وأصبحت مؤلفاته مرجعاً لكثير من العلماء الذين جاؤوا من بعده.

العنوان: مادّة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرر الأوباء.

المؤلف: محمد بن أحمد بن سعيد التميمي المقدسي (ت390هـ/1000م).

المكتبة: المارونية– حلب– رقم 561.

عدد الأوراق: 189 ورقة.

الناسخ: السيد محمد بن السيد محمد، خادم الخطابة بالجامع الكبير بطرابلس الفيحاء، وقد كتبه برسم السيد علي أفندي النقيب على إشراف طرابلس الشام.

تاريخ النسخ: 28 جمادى الآخر 1132هـ/7 أبريل 1720م.

أولـه: أما بعد، أطال الله بقاء الوزير الأجّل.... بتأليف كتاب يبلغ بعد تعديل مزاجه ودفع الأعراض عن نفسه الجليلة من يتوّلى خدمته ويختصّ بالقرب منه.

آخره:.... وقد ذكر قوم من أفاضل الأطباء أن هذه الأدوية مفتعلة منحولة ليست لجالينوس ولا التفسير لحنين بل منسوب جميع ذلك إليهما، وقد صدق قائل ذلك وأصاب...

قياس الصفحة: 5،31 –5،20سم.

مكتوب بمداد أسود، وبخط نسخي مقروء منقّط، والعناوين بالأحمر.

والمخطوط مكتوب على ورق أصفر سميك نسبياً، ومّجلد بجلد سميك مزخرف.

نسخة وحيدة فريدة في مكتبات العالم.

أهميـة المخطـوط: موسوعة في الطب الوقائي وحماية البيئة في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، تطّرق فيها المؤلف إلى موضوع تلّوث الهواء والماء والأمراض الناجمة عنها، والطرق الصّحية للوقاية من العدوى عند حدوث الوباء، والأدوية والعقاقير التي تقوّي جهاز المناعة ضد العدوى والأوبئة.

كما أوضح أهمية الطب الوقائي، ومعالجة عناصر البيئة من هواء وماء وتحسين خصائصها قبل استثمارها، بالإضافة إلى ربطه بين عناصر البيئة مجتمعة،وتوضيحه بأن تلوّث إحداها يستدعي بالضرورة تلوّث العناصر الأخرى.

كان المخطوط في حكم المفقود عند الباحثين، إذ لم تذكر المراجع أو فهارس المخطوطات أي نسخة مخطوطة منه، وأعتبره الجميع في حكم المفقود، ولكن المفاجأة تكمن بأن النسخة المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب كانت ترقد في المكتبة المارونية بحلب.

وقد نشر المخطوط أخيراً بعد تحقيقه في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة عام 1999م.

العنوان: رسالة في الترياق، أو رسالة محمد بن احمد الى ابنه علي في صناعة الترياق الفاروق و التنبيه على ما يغلط فيه من أدويته،ونعت أشجاره الصحيحة وأوقات جمعه وكيفية عجنه، وذكر منافعه وتجربته.

المؤلف: محمد بن أحمد بن سعيد التميمي، المقدسي (ت930هـ/1000م)

الكتاب مفقود تماماً، ولا يعرف منه أي نسخة مخطوطة في مكتبات العالم، ولكن وجدنا مقتطفات طويلة منه في كتاب: جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق COMPENDIUN OF DISAGREEMENTS AND AGREEMENTS للمؤلف علي بن عبد العظيم الأنصاري المتطببّ (ت بعد 669هـ/1270م).

المكتبة: الوطنية الطبية – أمريكا– مجموعة سومر NATIONAL LIBRARY OF MEDICINE.A 64

أوله: يا بنيّ فإني وجدت حكماء اليونانيين ومن بعدهم من أفاضل الأطباء المحدثين على عصرنا هذا، مجمعين على فضل الترياق الأكبر، ومقدّمين له في سائر كتبهم وجميع أدويتهم ومعاجينهم، مطنبين في فضائله.....

أهمية المخطوط: رسالة الترياق للتميمي في حكم المفقودة حالياً، ولا يعرف لها أي نسخة حالياً، ومن الجيد أننا عثرنا على مقتطفات طويلة منها في كتاب آخر هو **[جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق].**

بحكم نشأته المقدسية جال التميمي في الجبال المحيطة بالقدس وسهولها وقراها برفقة شيوخه وأساتذته، وتعّرف عن كثب على النباتات والأشجار والأعشاب الطبية التي تزخر بها تلك المناطق الزراعية الغنية، وسّجل مجموعة من المشاهدات النباتية المقدسية.

العنوان: جيب العروس وريحان النفوس.

المؤلف: محمد بن أحمد بن سعيد التميمي.

أوله: أما بعد، فإن هذا مما وفقني الله.... وبعد فمجتمع في هذه النسخة أمور عظيمة عن العباس، رضي الله عنه وعن ولده وعن جميع الصحابة آمين، صفة دهن للقوبة....

آخره: باب صبغ لون، لون الذهب طريف حسن، من كتاب ابن العباس.

عدد الأوراق: 170 ورقة.

قياس الصفحة: 19– 26سم

نسخة نفيسة جداً بقلم أندلسي من القرن الخامس الهجري على الأكثر، عدا الكرّاسة الأولى فإنها بخط حديث.

أهميـة المخطـوط: تحدث المؤلف عن صناعة أنواع العطور و الطيب، والبخورات، وأنواع المسك والعنبر المستورد من بلاد الهند وفارس.

القرن السابع الهجري / العاشر الميلادي

رشيد الدين بن أبي الفضل بن علي الصوري (ت639هـ/1241م)

ولد في صور (لبنان)، وبعد دراسته للعلوم الطبية في دمشق، انتقل الى القدس وكانت المحطة الأبرز في حياته العلمية، وأقام بها سنين يطبّب المرضى في بيمارستان القدس الذي أنشأه الناصر صلاح الدين عام (588هـ/1192م).

صنّف عدة مؤلفات طبية،أشهرها كتاب في الأدوية المفردة، استقصى فيه جميع الأدوية المفردة التي ورد ذكرها عند من سبقه من علماء العقاقير، وأضاف اليه ما اطلّع عليه من نباتات طبية عرف صفاتها ومنافعها.

العنوان: تذكرة الكحالين، أو الكافي في طب العين.

المؤلف: رشيد الدين بن علي الصوري (ت639هـ/1241م).

المكتبة: الظاهرية– دمشق، رقم 3143 ج.

أوله: باسم الإله الشافي، هذا كتاب الكافي في طب العين للصوري.

عدد الأوراق: 22ورقة.

قياس الصفحة: 22– 15سم.

المخطوط مبتور من آخره، ولا يعرف اسم الناسخ أو تاريخ النسخ.

أهمية المخطوط:

يذكر المؤلف في مطلع الكتاب أنه قسمّه الى خمسة عشر باباً، لم يبق منها إلا أقل من النصف، والمادة العلمية الطبية ذات مستوى رفيع تتناسب مع أرقى كتب الكحل (طب العين) التي كتبها أطباء الحضارة الإسلامية.

تتضمّن المخطوطة معالجة ومداواة العين، وتشمل أبواباً في الأدوية المركبّة الخاصة بالعين كالشيافات والأكحال.

ومن خلال دراسة المخطوط يبدو لنا المؤلف ابن الصوري صاحب خبرة واسعة في المداواة، ويشترط على من يريد تطبيب العين معرفة قواعد تشريح وفسيولوجيا العين، ويعرف أين يستعمل الدواء في أي من أمراض العين، وفي أي مراحل المرض.

علي بن يوسف التنوخي، المقدسي (ت بعد 656هـ/1258م)

طبيب، صيدلاني، نباتي، عشاّب.

درس العلوم الطبية على جده رشيد الدين الصوري، وتجّول في مدن بلاد الشام وسواحل البحر الأبيض المتوسط، وتابع رحلاته الى بلاد الروم، وجزيرة صقلية، بهدف استكمال تحصيله الطبّي، والتعّرف عياناً على النباتات الطبّية في مواطنها الأصلية.

اهتم بعلم النبات لغايات طبية وصيدلانية، وقدّم مادة علمية نباتية جيدة، ويعتبر من المؤسّسين لعلم النبات المستقل.

العنوان: الشامل في الأدوية المفردة.

المؤلف: علي بن يوسف بن عبد الله بن علي التنوخي، المقدسي (ت بعد 656هـ/1258م).

المكتبة: أحمد الثالث – تركيا رقم 2067.

عدد الأوراق:470 ورقة.

قياس الصفحة: 18 – 26سم.

مكتوبة بخط نسخ.

العنوان: الكتاب الأشرف في صنعة الترياق المنقذ للنفوس الشريفة من التلف.

المؤلف: علي بن يوسف بن عبد الله بن علي التنوخي، المقدسي (ت بعد 656هـ/ 1258م).

المكتبة: خدا بخش بتنه – الهند– رقم 2202– ف 312.

أوله: الحمد لله مدّبر الأمور... الذي خلق المخلوقات من أربع طبائع مختلفات، فألفّ منها تأليف متفقّات ومختلفات حار وبارد ورطب ويابس، وركبّ منها جميع المركبّات الحيوان والمعدن والنبات الذي لاحسّ له ولا حركة له....

آخره: وهذه كافية من ذكر منافعه، وكيفية شربه وكّميته، قد أتينا به ملخّصاً متبيناً من كلام جالينوس وحنين وغيرهما من أصحاب التجارب، وذلك كاف لمن أراد معرفة فضله.

الناسخ: علي بن محمد بن محمد بن علي الشربيني الشافعي، المتطبّب بدار الشفا بالبيمارستان المنصوري بمصر.

عدد الأوراق: 120 ورقة.

قياس الصفحة: 9.5 – 14.5سم.

المخطوط مكتوب بخط نسخ معتاد واضح وجميل، وبمداد أسود والعناوين بالأحمر.

نسخة وحيدة فريدة في مكتبات العالم.

تتميّز:

1– أنها نقلت من خط المؤلف.

2– نسخت في حياة المؤلف.

3– نسخت بقلم طبيب.

أهمية المخطوط:

كتاب هام في مجال علم السموم والنبات والصيدلة، ويعتمد المؤلف المنهج التجريبي والتطبيق العملي والبحث والتجوال في البلاد للوصول إلى الحقيقة العلمية.

ساهم المؤلف في صناعة الترياقات لما لها من أهمية، فأعطاها جلّ وقته وعلمه وخبرته، ويدّل أسلوبه في الكتابة على معرفته التامة بصناعة الترياق وكيفية العلاج، فشرح الأدوية المفردة بأنواعها الداخلة في تركيبه شرحاً وافياً، وبينّ الأخطاء التي يقع فيها البعض عند اختيارها،وطريقة تحضيره وحفظه، وجرعته....

القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي

جمال الدين يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي، الحنبلي، الدمشقي، الشهير بابن المبرد (ت909هـ/1503م).

ينتمي إلى **بني قدامة المقادسة** الذين هاجروا إلى الشام، واستقروا بدمشق هرباً من الاضطهاد الصليبي.

درس على شيوخ العصر، وكان متفرّغاً للتصنيف والتأليف حتى بلغ إنتاجه العلمي 400 مّصنف في مختلف العلوم والفنون.

لم يرد في سيرته أنه مارس الطب، وإنما هو مصّنف في الطب، ولعل استخراجنا لمصنفاته الطبية تقديراً لجهوده في هذا المجال.

المكتبة الظاهرية – دمشق

العنوان: مجموع طبي– رقم 7148.

المؤلف: جمال الدين يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي، الحنبلي، الدمشقي، الشهير بابن المبرد (ت909هـ/1503م).

تاريخ النسخ: 901 هـ/1495م.

الناسخ: المؤلف نفسه.

عدد الأوراق: 86 ورقة.

قياس الورقة: 19 – 13سم.

يحتوي المجموع على فصول كل منها سميّ كتاباً، ولو وقع بورقتين دون تقديم لذلك أو تمهيد، ويتضمّن:

- **الاقناع في أدوية القلاع:**

  رقم 3156 أ.

  عدد الأوراق: 6، من 1– 6.

- **الاتقان في أدوية اللثة واللسان:**

  رقم 316/ب.

  عدد الأوراق: 11، من 7 – 17.

- **الفنون في أدوية العيون:**

  رقم 3156/جـ.

  عدد الأوراق 10، من 17– 26.

- **الجول على معرفة أدوية البول:**

  رقم 3156/حـ.

عدد الأوراق 11، من 27- 37.

- **ايضاح القضية لمعرفة الأدوية القلبية.**

رقم 3156 /خ.

عدد الأوراق 6، من 37- 42.

- **دواء المكترب لعضة الكلب الكلِب،**

رقم 3156/د

عدد الأوراق 5، من 43- 47.

- **هداية الأخوان لمعرفة أدوية الآذان.**

رقم 3156/ذ.

عدد الأوراق 19 من 47- 65.

- **الاتقان لأدوية اليرقان ومعه فصول في أوجاع المفاصل**

رقم 3156/ر.

عدد الأوراق 16، من 66-81.

- **طبايع المفردات**

رقم 3156/ ز.

عدد الأوراق 2،من 81- 82.

- **منافع المفردات**

رقم 3156/س.

عدد الأوراق 3، من 82 -84.

- **النصيحة المسموعة في أدوية العلقة المبلوعة.**

رقم 3156/ش.

عدد الأوراق 2،من 83- 84.

العنوان: مجموع طبي (2)

المؤلف: جمال الدين يوسف بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي، الحنبلي، الدمشقي، الشهير بابن المبرد (ت909هـ/ 1503م).

عدد الأوراق: 112 ورقة

الناسخ: المؤلف ذاته

تاريخ النسخ: 901هـ

قياس الورقة: 19 - 13،25سم

يحتوي المجموع على مايلي:

- **كمال الإصغاء لمعرفة أدوية الأمعاء.**

رقم 3165/ أ

عدد الأوراق 7، من 1-7.

تحتوي الرسالة مركّبات صيدلانية ووصفات طبية لمعالجة تقرّح الأمعاء وسحجها.

- **هداية الأشراف لمعرفة ما يقطع الرعاف.**

رقم 3165 / ب.

عدد الأوراق 12، من 9 -20.

- **الكمال في أدوية الصدر والسعال.**

رقم 3165 / جـ

عدد الأوراق،10 من 21- 30.

- **العهدة لأدوية المعدة.**

رقم 3165 /حـ.

عدد الأوراق 10، من 31- 40.

- **تمام النوال في أدوية الطحال.**

رقم 3165/ خـ.

عدد الأوراق 10،من 51- 60.

- **الأدوية المفردة لعلل المقعدة:**

رقم 3165/د.

عدد الأوراق 8، من 61 -68.

- **اللبق في أدوية الحلق:**

رقم 3165/ذ

عدد الأوراق8، من 69 – 76.

- **ارشاد المعتمد الى أدوية الكبد:**

3165 /ر.

عدد الأوراق 9، من 77- 85.

- **الأدوية الوافدة على الحمّى الباردة:**

رقم 3165/ ش.

عدد الأوراق 7، من 86 – 92.

- **بلغة الآمال في أدوية قطع الإسهال**

3165 /ص.

عدد الأوراق 7، من 93- 99.

- **تعريف المجروح ما يدمل القروح**

رقم 3165 / ض

عدد الأوراق 2، من 100 – 101.

- **فوائد النباتات والثمار مرتبّة على حروف المعجم.**

رقم: 3165 / ط.

عدد الأوراق 9، من 104 – 112.

العنوان: البيان لبديع خلق الانسان

المؤلف: جمال الدين يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي، الحنبلي، الدمشقي، الشهير بابن المبرد (ت909هـ/ 1503م).

المكتبة الظاهرية – دمشق– رقم 3196.

تاريخ النسخ 886هـ.

عدد الأوراق: 130 ورقة.

قياس الصفحة: 27 – 18 سم.

يذكر فيه تركيب البدن، وما يتعلق به من الحكم الفقهية والفوائد اللغوية والأمور الطبيعية وعجائب تركيبه في عشرة أبواب.

العنوان: دخول الحمّام وقوانينه، أو عدّة الملمّات في تعداد الحمامّات.

المؤلف: جمال الدين يوسف بن عبد الهادي المقدسي (ت 909هـ/1503م)

المكتبة: الظاهرية – دمشق، رقم 4535.

تاريخ النسخ: 885هـ/

الناسخ: المؤلف ذاته.

عدد الأوراق: 102 ورقة.

قياس الصفحة: 19 – 13 سم.

العنوان: زبدة العلوم وصاحب المنطوق والمفهوم.

المؤلف: جمال الدين يوسف بن عبد الهادي المقدسي (ت909هـ/1503م).

المكتبة: الظاهرية – دمشق – رقم 3192.

تاريخ النسخ: 887هـ.

الناسخ: المؤلف ذاته.

عدد الأوراق: 168 ورقة.

قياس الصفحة: 18.5 – 13،5 سم.

العنوان: طب الفقراء.

المؤلف: جمال الدين يوسف بن عبد الهادي المقدسي (ت909هـ/1305م).

المكتبة: الظاهرية – دمشق – رقم 3155.

الناسخ: المؤلف ذاته.

عدد الأوراق: 200.

قياس الصفحة: 18.5 – 13سم.

العنوان: المشتبه في الطب.

المؤلف: جمال الدين بن عبد الهادي المقدسي (ت909 هـ/ 1503م).

المكتبة: الظاهرية– دمشق، رقم 3216.

الناسخ: المؤلف ذاته.

عدد الأوراق: 3 ورقة.

قياس الورقة: 17 – 13سم.

العنوان: كتاب في الأدوية.

المؤلف: جمال الدين يوسف بن عبد الهادي المقدسي (ت909هـ/1503م).

المكتبة: الظاهرية – دمشق – رقم 2702.

تاريخ النسخ: 902هـ/

الناسخ: الناسخ ذاته.

عدد الوراق: 12 ورقة.

قياس الأوراق: 18 – 13 سم.

المصادر والمراجع

– ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أحمد بن القاسم . عيون الأنباء في طبقات الأطباء – دار مكتبة الحياة – بيروت – د.ت.

– ابن الأثير: عز الدين – الكامل في التاريخ – بيروت – 1978 م.

– ابن الأخّوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي – معالم القربة في أحكام الحسبة – مكتبة المتنبي – القاهرة – د. ت.

– ابن البطريق: سعيد – كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق – بيروت – 1905 م.

– ابن جميع: هبة الله بن زين بن حسن– طبع الإسكندرية – تحقيق مريزن عسيري و سعد عبد الله البشري– مطابع جامعة أم القرى– مكة المكرمة – 1417هـ/1997م.

– ابن حجر العسقلاني:شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد – بذل الماعون في فضل الطاعون– مخطوط المكتبة الشرفية الوقفية – حلب– رقم 1257.

– ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد – الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – دار الجيل– بيروت– 1414هـ/1993م.

– ابن الحشاء: أحمد بن محمد – مفيد العلوم ومبيد الهموم– تحقيق جورج كولان وب. رينو– مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية – الرباط – 1941م.

– ابن خلكّان: أحمد بن محمد – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – تحقيق إحسان عباس – دار صادر – بيروت – د. ت.

– ابن طولون الدمشقي: شمس الدين محمد بن علي– رسالة الإشراق لأحكام الترياق – مخطوط دار الكتب الظاهرية– دمشق– رقم 42547.

- ابن العبري: أبو الفرج غريغوريوس – تاريخ مختصر الدول – دار الكتب العلمية – بيروت – 1418 هـ / 1997 م.
- ابن فضل الله العمري: شهاب الدين أحمد – مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – تحقيق بسام محمد بارود – منشورات المجمع الثقافي – أبو ظبي – السفر التاسع – 1424هـ/2003م.
- ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم – لسان العرب – دار صادر – بيروت– 1997م.
- الأنصاري: علي بن عبد العظيم – جامع الافتراق والاتفاق لصناعة الترياق – مخطوط جامعة برنستون – الولايات المتحدة الامريكية– رقم H 656.
- البابا: محمد زهير– الأقرباذينات– بحث منشور في الندوة العالمية الأولى لتاريخ العوم عند العرب – جامعة حلب – الجزء الأول – 1977م.
- بروكلمان: كارل – تاريخ الأدب العربي – الهيئة المصرية العامة لكتاب – القاهرة – القسم الخامس – 1995.
- التميمي: محمد بن أحمد – مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرر الأوباء – تحقيق يحيى شعار – معهد المخطوطات العربية – القاهرة – 1420 هـ / 1999 م.
- جارلند: جوزيف– قصة الطب– ترجمة سعيد عبده– دار المعارف بمصر – القاهرة– 1959م.
- حمارنة: سامي – الطب العربي في فلسطين زمن الفاطميين والأيوبيين – بحث في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام – مطابع الجمعية العلمية الملكية – عمان – 1983.
- حمارنة: سامي – تاريخ تراث العلوم الطبيّة عند العرب والمسلمين – المطبعة الوطنية – عمان – 1406 هـ / 1986 م.
- حمارنة: سامي – فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية الطب والصيدلة– مطبعة الترقي– دمشق– 1389هـ/1969م.
- الحنبلي: مجير الدين – الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل– عمان – 1973م.
- خسرو: ناصر – سفرنامة – ترجمة يحيى الخشاب – القاهرة / 1945 /.
- الخيمي: صلاح محمد – فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية الطب والصيدلة– دار المعارف للطباعة – دمشق– الجزء الثاني– 1401هـ/1981م.
- الدبّيان: أحمد – حنين بن اسحاق دراسة تاريخية ولغوية – مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض – 1414هـ/1993م.
- الذاكري: محمد فؤاد – التنوخي، علي بن يوسف بن عبد الله – مدخل منشور في موسوعة إعلام العلماء العرب والمسلمين – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – دار الجيل – بيروت – المجلد الرابع – 1425هـ / 2005م.
- الذاكري: محمد فؤاد – طب الأسنان والجراحة الفموية في الحضارة العربية الإسلامية – وزارة الثقافة – دمشق – 1427هـ / 2006م.
- الذاكري: محمد فؤاد – علم الفلك الطبي – دمشق – المطبعة التعاونية – 2003 م.
- سارتون:جورج – تاريخ العلم – ترجمة ابراهيم بيومي مدكور ورفاقه– دار المعارف بمصر – القاهرة – الجزء الرابع – 1970م.
- ششن: رمضان ورفاقه– فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا– مركز اِلأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول– استانبول– 1404هـ/1984م.
- السيد علي: علي – القدس في العصر المملوكي – القاهرة – 1986م.
- العسلي: كامل جميل – بيت المقدس في كتب الرحلات– منشورات الجامعة الأردنية – عمادة البحث العلمي – عمان – 1992 م.
- العسلي: كامل جميل – من أثارنا في بيت المقدس – عمان – 1981 م.
- العسلي: كامل جميل – مقدمة في تاريخ الطب في القدس – منشورات الجامعة الأردنية – عمادة البحث العلمي – عمان – 1414هـ / 1994م.
- عيسى: أحمد – تاريخ البيمارستانات في الإسلام – دار الرائد العربي – بيروت – الطبعة الثانية – 1401 هـ / 1981 م.
- عيسى: أحمد – معجم الأطباء – دار الرائد العربي – بيروت– الطبعة الثانية – 1402هـ/1982م.

– فهـرس المخطوطـات المصـورة – الجـزء الثالـث، القسـم الثـاني، الكتـاب الثـاني– المطبعـة العربيـة الحديثـة – القـاهرة – 1398هـ/1978م.
– قطاية: سلمان – مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة بحلب . مطبعة جامعة حلب – حلب– 1397 هـ / 1976 م.
– القفطي: علي بن يوسف – أخبار العلماء بأخبار الحكماء – مكتبة المتنبي – القاهرة – د.ت.
– المقدسي: محمد بن أحمد – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – مطبعة بريل – لايدن – 1906 م.
– المقريزي: تقي الدين – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار – دار صادر– بيروت– الجزء الأول– د.ت.
– موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – دار الجيل – بيروت – المجلد الرابع – 1425 هـ / 2005 م.
– الموسوعة الفلسطينية – بيروت – القسم الثاني، المجلد الثالث – 1990 م.
– النديم: محمد بن اسحق – الفهرست – دار المعرفة – بيروت – د. ت.
– النويري: أحمد بن عبد الوهاب – نهاية الأرب في فنون الأدب – القاهرة – 1357 هـ / 1938 م.

المصادر الأجنبية:

(1) Johnston,Penelope. Traditions in Arabic Medicine. Palestine Exploration‹Fund Quarterly Statement, Vol 107(1975)p.25

(2) Leclerc, Lucien. Histoire de la Medicine Arabe, Paris, 1876.

(3) Peter E.F. Jerusalem in the Eyes of Chroniclers‹Visitors, Pilgrims and Prophets from the Days of Abraham to the Beginning of Modern Times, Princeton‹1985.

(4) Schwake, N. Die Entwicklung des Krandkauswesens der Stadt Jerusalem vom Ende des 18 bis zum Begin des 20 Jahrts, Verlag Murken-Alt rogge, Herzogenrath, Germany,1983.

(5) Tobler,Titus. Denkblatter aus Jerusalem, St.Gallens 1853.

المحتوى

مقدمة 5

عرض تاريخي 7

الفصل الأول:

الطب والأطباء في القدس قبل الميـلاد 15

الفصل الثاني:

الطب في القدس خلال العصر الإسلامي الأول

(16-492هـ/637-1099 م) 21

الفصل الثالث:

عائلة التميمي الطبّية المقدسية 31

الفصل الرابع:

مؤلفات التميمي مادة البقاء في إصلاح

فساد الهواء والتحرّز من ضرَر الأوباء 49

الفصل الخامس:

الأطباء في العصر الأيوبي موفق الدين يعقوب بن سقلاب

أبو منصور(560هـ/1161م-625 هـ/1228م) 75

الفصل السادس:

عائلة ابن أبي فانة الطبية المقدسّية 93

الفصل السابع:

الأطباء في القرن السادس والسابع الهجري 103

الفصل الثامن:

الطب والطبابة والأطباء في الفترة المملوكية

(648 هـ/1250م-922هـ/1516م) 111

الفصل التاسع:

صناعة الدواء في القدس من خلال موسوعة طبيّة

(الترياق نموذجاً)..... 137

الفصل العاشر:

مشافي القدس 171

الفصل الحادي عشر:

نوادرالمخطوطات الطبية لأطباء القدس ... 195

المصادر والمراجع 210
المصادر الأجنبية 214